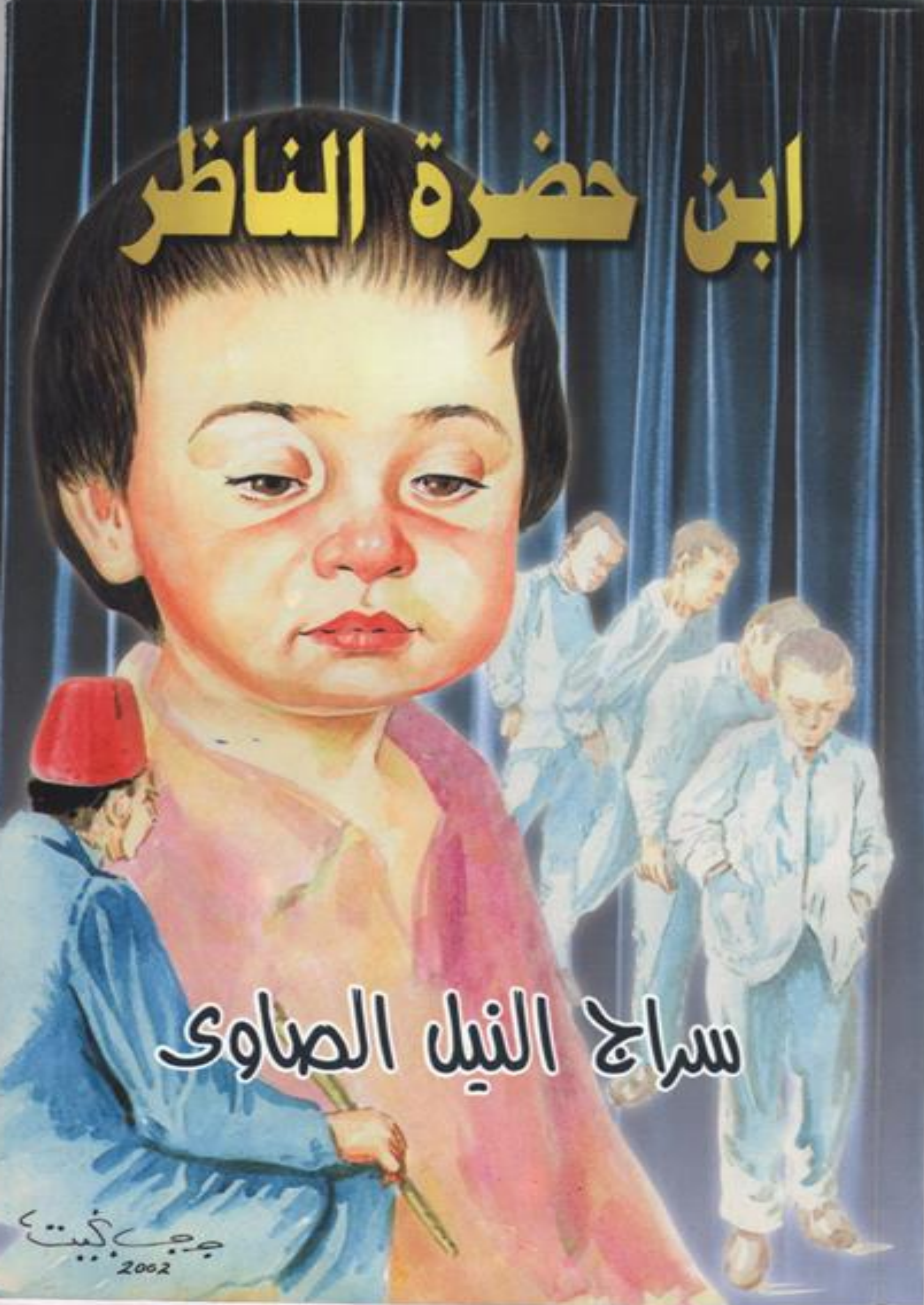

ابن حضرة الناظر
سراج النيل الصاوى
2002

مجموعة قصصية

ابن حضرة الناظر

سراج النيل الصاوى

إهداء

إلى كل من يحن للأوقات الجميلة ...

حيث براءة الطفولة و التعاملات النبيلة ...

إلى كل من يسترجع ذكرياته ...

القريبة أو البعيدة ...

المحزنة أو السعيدة ...

يستخلص من أحداثها العِبَرَ ...

و يستلهم منها الفِكَرَ ...

إلى كل هؤلاء ... أهدى هذه المجموعة القصصية .

المؤلف

سراج النيل الصاوى

ابن حضرة الناظر

بهتت من ذاكرتى صور الكثير من زملائى الذين كانوا معى بالسنة الأولى ، بالمرحلة الابتدائية ، لم أعد أتذكر منهم غير اثنين فقط ... سمير الذى استمرت زمالتى له حتى نهاية المرحلة ، وثانيهما ابن حضرة الناظر ، الذى كان يجلس بجوارى بالفصل ، فى القمطر الأول ، لازلت أتذكر ملامح وجهه جيداً ، كان أبيض الوجه ، ذو شعر أسود ناعم ، تنساب خصلة منه مغطية جزء من جبينه ، فيحاول رفعها لأعلى بيده ، كان معتنياً بهندامه ونظافة حذائه ، ولازلت أيضاً أتذكر الابتسامات التى كانت تعلو شفاه المدرسين كلما تحدثوا إليه .

وصورة ابن حضرة الناظر التى لم تزل محفورة عنه بذاكرتى أيضاً ، هى التى حدثت ظهر ذلك اليوم البعيد ، الذى اكفهر فيه الجو ؛ بسبب العاصفة الرملية ، التى غطت السماء وقتها ، حيث رأينا الأوراق و أشياء أخرى صغيرة تسبح في الجو من شدة الرياح والأشجار أخذت تتمايل على جانبيها ، بعد أن انتزعت الريح منها بعض أوراقها وفروعها الصغيرة ، و رويداً رويداً عم الظلام حوش المدرسة الذى كنا به وقتها ، وكدنا ألا نبصر ما حولنا ... أمرنا الأستاذ عبد العزيز مدرس الألعاب بصوته الجهورى أن نتوجه للفصول فوراً ... أسرعنا نتحسس طريقنا ... جلسنا فى مقاعدناخائفين ، ولم يظهر لنا من نوافذ زجاج الفصل المغلقة إلاّ الظلام التام ، بدأ البعض من التلاميذ فى البكاء ،

ثم تبعهم كل التلاميذ خاصة بعدما أعلن أحد التلاميذ أنه يوم القيامة ... فأخذ يصرخ مفزوعاً ، مؤكداً لنا ذلك ... صدقناه على الفور ... فأحاديث الكبار فى عائلاتنا كانت وقتها عن تنبؤات فلكية بقرب وقوع يوم القيامة وازداد بكاء التلاميذ ، وكنت أنا من أشدهم بكاء ، وأكثرهم خوفاً !

مسرعاً دخل الفصل الأستاذ حسنين ... طلب منا أن نكف عن البكاء ... استرعى انتباهه بكاء ابن حضرة الناظر الجالس بجوارى والذى كان يبكى مثلنا ... لم يهتم المدرس بنا .. وضع كل اهتمامه لابن حضرة الناظر ... فأخذ يهدئ من روعه وحده ، ويربت على كتفه وحده .. بينما أنا أنظر للأستاذ متمنياً أن يشد من أزرى ويطمئننى أنا أيضاً ... فقد كنت أبكى أكثر ... ودموعى كانت تسيل على خدى أغزر ... كم كنت أحتاج ساعتها لأن يربت الأستاذ على كتفى ، ويمسح دموعى ، مثلما يفعل مع ابن حضرة الناظر ! ... لكنه لم يعرنى اهتماماً ... واستمر يربت على كتفه وحده ، ثم اصطحبه معه إلى خارج الفصل ، قائلاً له : " تعال معى ؛ لنطمئن " بابا " عليك " ... وتركنا جميعاً مع دموعنا !

ظل هذا الموقف عالقاً فى ذاكرتى ... لأن حياتى مليئة بمثله ... فعندما زرت مع والدى قريته لأول مرة ... حدث أن اشتبكت فى عراك مع أحد أطفال القرية ... وعندما علم عمى المقيم بالقرية

بذلك ... نهرنى ، واستنكر ماحدث ، وطلب منى أن أتصالح مع الغلام ...

أوضحت لعمى بأن هذا الغلام هو الذى بدأ بالعدوان ... ابتسم عمى قائلاً لى : " لا تكن عنيداً ... اصطلح معه ، فوالده كبير القرية ... إنه ابن حضرة العمدة " ....

و تصالحت مع الغلام و أنا على مضض متذكراً ابن حضرة الناظر !

وعندما صرت طالباً مجتهداً بكلية الطب ، وكانت تقديراتى فى السنوات المختلفة فى الامتحانات تشير إلى تفوقى ، وإننى أول دفعتى باستمرار ، ومسألة تعيينى معيداً بالكلية أمر مؤكد فور تخرجى ... عندما ظهرت النتيجة فى السنة النهائية ... صدمت لأننى لست ممن سيحظون بالعمل معيداً ... على الفور شعرت بالمرارة و الألم ، وأنا أتساءل مستنكراً : كيف يسبقنى " فلان " هذا فى الترتيب ؟!

أجابنى زميلى فى الدراسة ، وهو يطيب خاطرى ، قائلاً :

- " هون عليك ... لا تنس أنه ابن حضرة العميد ! " .

ومع مرور الأيام ... وجدت صورة " ابن حضرة الناظر " تلاحقنى و لازالت عالقة فى مخيلتى ... فالأحداث المماثلة فى حياتنا العامة كثيرة !!

سوق الخواجات

كان يزاملنى بفصل ثانية أول ، بالملك الصالح الابتدائية كثيراً ما كنا نتزامل أيضاً فى السير ، عند الذهاب والعودة من المدرسة ، حيث كان يجاورنى فى المسكن .

فى العودة ، كنا نفضل السير بسوق الخواجات ؛ لوجود العديد من محلات الأقمشة ، على جانبى الشوارع الضيقة ، والتى كانت تزدحم كثيراً بالمشترين ، وكان هذا سبباً يحببنا فى السير به ؛ لنتمتع بالفرجة أكثر .

مع مرور الوقت ، أصبح الدافع الحقيقى للسير به ، أننا كنا نعثر ـ أحياناً ـ على بعض قطع النقود المعدنية ملقاة على أرض الشارع ، كانت النقود أغلبها من فئة المليم والخمسة مليمات، ومرة وحيدة عثر زميلى على ورقة مالية فئة العشرة قروش ، لعل تلك النقود كانت تسقط من المارة ، أو من الأولاد الصغار ، الذين كانوا يرافقون أمهاتهم أثناء عمليات الشراء .

لذا فإننا حين كنا نسير بالسوق ، كانت أبصارنا تتجه إلى الأرض ، محدقة فى أسفلت الشارع ؛ بحثاً عن تلك القطع المعدنية ، وكان يساعدنا على هذا قصر قامتينا غير المرتفعتين عن الأرض كثيراً .

عندما كان أحدنا يعثر على شئ منها ، كان يسرع بالتقاطها ، ثم يُقَبِّل ظهر يده وبطنها عدة مرات ، وهو يشكر الله فى سره ؛ إيماناً بأنها نعمة من الله . الفرح لا يقتصر على من يعثر على القطعة المعدنية فقط ، بل يشاركه زميله الفرح أيضاً ؛ لأنه سيأخذ نصيبه من الحلوى التى سيشتريها من عثر على النقود .

هكذا كانت تمر الأيام هنيئة أثناء الدراسة مع زميلى ، الذى ازدادت علاقتى به ، حيث كانت طباعنا واحدة ، فضلاً عن الجيرة التى بيننا ... فاعتبرته كأخ لى . إلى أن كنا نسير بالسوق ذات يوم نحدق بأبصارنا فى الأرض ، و إذا بى أشاهد ورقة مالية مطوية عدة مرات ، أسرعت بالتقاطها ، ووضعتها فى جيبى ، شعرت ساعتها بدقات قلبى تسرع ، كان ذلك أول مرة أعثر فيها على ورقة مالية ، استوقفنى زميلى طالباً رؤية ما عثرت عليه ... سرنا قليلاً ثم توقفنا .. أخرجت الورقة .. لم أصدق ما أرى ... كانت جنيهاً !. لم يكن فى زماننا مثل هذا المبلغ يحصل عليه طفل فى سنى .. فهذه الفئة من النقود كان يختص بها الكبار فقط .

طلب زميلى أن أعطيه نصف قيمة ما عثرت عليه ، رفضت ، أوضحت له بأننى سأشترى حلوى كثيرة بجزءٍ من الجنيه ، وسأعطيه نصف كمية الحلوى ، رفض محتداً ، عندئذٍ سألته :

ـ لِمَ ؟ إننا لم نتقاسم من قبل حين عثرت أنت على العشرة قروش.

لكن زميلى أصر على طلبه ، و أنا بدورى رفضت ابتزازه ، حاول التعدى علىَّ معتمداً على أنه أقوى منى ؛ ليقاسمنى بالقوة على ماعثرت عليه ، إلى أن تدخل بعض المارة .. فمنعوا اعتدائه .

بعدها أصبحت أسير بمفردى ... بعيداً عن طريق زميلى ... وبعيداً عن شوارع السوق . لكن بعد مرور سنوات على تلك الواقعة ... كثيراً ما أتذكر أيام الصفاء والمودة التى كانت بيننا ... ثم أسأل نفسى :
ـ لقد كان صديقى .. وكنت أعتبره كأخ لى .. فلماذا اعتدى علىَّ ؟ هل استكثر علىَّ ما وهبه الله لى حين عثرت على الجنيه ؟! .

مرات أخرى أسرح بخيالى متذكراً الواقعة ، عندما أجد بعض الدول تتعامل مع جيرانها ، مثلما تَعَاملَ جارى معى !

حكايتى مع رِكس !

بعض ذكريات طفولتى ، أتذكرها كأنها حدثت بالأمس القريب ، منها ماحدث لى مع رِكس ، ذلك الكلب اللولو الأبيض ، صغير الحجم ، الذى كان يربيه خالى بمسكنه الكائن بالبحر الصغير بالمنصورة .

كنت وقتها صغير السن ، فى الثامنة من عمرى ، وأقيم بمنزل بأحد الشوارِع المتفرعة من شارِع العباسى الشهير ، أى أن المسافة بين منزل خالى ومنزلنا كانت بعيدة ، وتستغرق حوالى النصف ساعة تقريباً ، سيراً جاداً على الأقدام .

كانت زياراتى لخالى عديدة ، لم يكن لدينا فى ذلك الوقت تليفون بمسكننا مثله ، و إذا أرادت والدتى ، أو إحدى خالاتى اللاتى تقمن بجوارنا شيئاً من شقيقهن ، ما عليهن إلا أن يكلفننى بالتوجه إليه ، و إبلاغه .

كنت أرحب بذلك ، فأولاد خالى كانوا فى مثل سنى ، و زياراتى لهم فرصة للعب و الضحك معاً .

الدقائق الأولى من الزيارة كانت تجعلنى متوتراً ، وتخيفنى أحياناً ! . فما تكاد قدماى تقترب من شقة خالى ، وقبل أن أطرق بابها ، إلا و أسمع نباح رِكس الشديد ،

كانت لحظات عصيبة بالنسبة لى عندما يُفتح الباب ، فرِكس كان يشتد نباحه ، ناظراً لى بشراسة ، آخذاً وضع الاستعداد للهجوم علىَّ . لكن يحول بينه وبينى من يفتح لى الباب ، ولا يسكت رِكس إلا بعد أن يطمئن بمشاهدة أهل البيت ، وهم يرحبون بى ، ويجلسون فى ود معى

فى تلك اللحظات كنت أختلس النظر إلى رِكس ، فأجده يصوب بصره لى هو الآخر ، ولا يحيده عنى ! ... بسرعة كنت أتحاشى رؤيته بتحويل رأسى لناحية أخرى . يلاحظ أبناء خالى ذلك ... يطمئنونى ... يخبروننى أنه كلب لطيف لا يؤذى أحداً ، يؤكدون على قولهم باللعب معه ، حيث يلقون كُرة صغيرة بعيداً عنه ، فيسرع رِكس بالتقاطها بفمه ثم يقدمها لهم ثانية وهو يهز ذيله فرحاً ! ... و رويداً رويداً بدأت أحبه مثلهم ! .

فى إحدى الزيارات لهم مساء ، قالت زوجة خالى بحزم :

ـ خذ رِكس معك إن رغبت فى تربيته بشقتكم ، ضعه فى جوال ، وأحمله على ذراعيك ؛ حتى لا يتمكن من العودة ثانية ! .

لا أدرى السبب فى رغبتها نحو إبعاده عنهم ، وافقت على الفور ، و رحبت بذلك ، لكننى طلبت منهم أن يضعوه فى الجوال بمعرفتهم ... قاموا بتنفيذ ذلك ، و انصرفت بعد أن أوصانى أبناء خالى بالاعتناء به و برعايته .

سرت وأنا أحمله داخل الجوال على ذراعى ، صعدت به الكوبرى العلوى بمحطة السكة الحديد ، بعدها قطعت شارع السكة الجديدة لنهايته ، وعرجت يساراً إلى شارع العباسى ، ثم دلفت منه إلى شارعنا حيث أقيم بشقة بالدور الأرضى .

عندما أخبرت أمى ، أمرت بوضعه فى الحمام ، وأعددنا إناء به طعام له و آخر به ماء ، عندما أخرجته من الجوال كان متهيجاً كثير النباح ، محاولاً الفرار من الحمام أثناء خروجى ، فأحكمت غلق الباب خلفى .

علقت أمى على ذلك قائلة :

ـ لا تقلق ... سيمضى وقت وهو على حاله هذا ، ثم يهدأ بعد أن يأنس لنا و للمكان .

بحثت عن كرة صغيرة لى ، وجدتها ، أستعد لألعب معه فى صباح الغد ، بينما أعدت أمى شريطاً أحمر من القطيفة لألفه حول عنقه ؛ ليزداد جمالاً ، شكرتها ، ثم ألقيت بجسدى على السرير ، وابتسامة الرضا ترتسم على شفتى ، فغداً سوف ألعب مع رِكس ، تماماً مثلما كان يفعل أبناء خالى .

فى الصباح استيقظت مبكراً ، لم أستمع لنباحه ، لعله تعب فنام بحثت عنه فى كل مكان بالشقة ، لكن دون جدوى ، بهدوء أخبرتنى أمى بعد أن عاينت المكان ، باحتمال هروبه من نافذة الحمام الصغيرة ، حيث تُرِكت مفتوحة .

اعتصرنى الألم ، وحزنت لفقده كثيراً ، أشعر بالخجل من مقابلة أولاد خالى ، فقد أوصونى به كثيراً ، إنهم سيحزنون عليه مثلى ، أخيراً تشجعت وقررت الذهاب إليهم لأخبرهم بما حدث ، حملت معى الشريط القطيفة الأحمر لأبرهن لهم بأننى كنت سأرعاه وأعتنى به .

عندما اقتربت من منزل خالى ، ازداد خجلى ، ضاعت منى كلمات الاعتذار التى أعددتها بالطريق ، تحاملت على نفسى وعزمت أن أواجههم بحقيقة هروب رِكس ، والذى لم يكن نتيجة تقصير أو إهمال منى . لما اقتربت قدماى من الباب ، كانت المفاجأة ، سمعت نباح رِكس ! ... ظننتُ أول الأمر أن هذا النباح ما هو إلا محض خيال ! ... عند فتح الباب ... وجدت رِكس أمامى بشحمه ولحمه ونباحه ! ... لم أستطع أن أتكلم ... خرست . كيف يحدث هذا ؟ كيف يتمكن من العودة لمكان معيشته ؟ .. لقد حملته داخل الجوال على ذراعى طوال تلك المسافة البعيدة ! ..

خفف عنى استقبال أولاد خالى لى عندما رحبوا بى بشدة .. وتصاعدت الضحكات منهم ... و أنا أقص عليهم ماحدث ... بعضهم أخذ يربت بيده على رِكس الذى كانت السعادة تبدو جلية فى عينيه لأنه عاد إلى المكان الذى عاش فيه و أحبه .

عندما عرضت عليهم أخذه ثانية منهم ، رفضوا جميعاً ، وكانت اشدهم رفضاً زوجة خالى .

مرارة العسلية !

حين تقدم به العمر ، واشتعل رأسه شيباً ، أصبح الآن يشاهد فى القاهرة والمدن الكبيرة ، الفتيان والفتيات وهم يسيرون معاً ، فى الشوارع علناً ، نهاراً أو ليلاً ، وهم فى حالة هيام ، بعضهم أياديهم متشابكة ، و آخرون منهم يتأبطون الأذرع ، بلا وجل أو خجل ، عندما يشاهد ذلك ... يترحم على أيام الزمن الماضى !.

تذكر حينما كان طفلاً صغيراً ، فى مدينته الصغيرة ، لم يكن يشاهد مثل هذه المناظر ، التى أصبحت ـ الآن ـ مألوفة للناظرين . ويتذكر كيف كان للطريق احترامه وتقاليده ويتذكر كيف كان الخطيب إذا سار مع خطيبته ، والتى خطبها رسمياً من الأهل ، تكون مشيتهما بالطريق جادة ؛ احتراماً لتلك التقاليد ، وغالباً ماكان يخرج معهما طرف ثالث من أهل الخطيبة .

أما المقابلات الغرامية بين المحبين ، فإنها كانت تتم خفية فى الأماكن البعيدة غير المطروقة ، أو فى الحارات المظلمة ، و إذا حدث مثل هذا اللقاء ، و أُكتُشِف ، فإن أطفال وصبيان الحارة يزفون الحبيبين بنشيدهم الذى يحفظونه لتلك المناسبة ... نشيد كان يحفظه معظم أطفال مصر فى ذلك الوقت ، كانوا يرددون بصوت مرتفع : سيب النعجة يا خروف ...

ومع صياحهم ... يضطر الحبيب لترك حبيبته أو الابتعاد بها عن هذا الصياح .

يتذكر أنه ذات مرة كان أحد هؤلاء الأطفال الذين صاحوا بهذا النشيد .

كانوا وقتها أربعة أطفال من ساكنى الشارع ، و الوقت بعد الغروب ، يتسامرون ويلعبون على ضوء عمود النور ، وإذا بأحدهم يلمح من بعيد ، فتى وفتاة ترتدى الملاءة اللف السوداء ، يقفان ويستتران بظلام الحارة المجاورة . صاح الطفل منبهاً زملائه مشيراً نحوهما ... ترك الأطفال لهوهم ... فالأمر جد خطير .. وعلى الفور أطلقوا صيحاتهم ... سيب النعجة يا خروف ...

بسرعة أخذ الفتى فتاته ، و ابتعدا خشية افتضاح أمرهما رغم أنهما لم يخدشا الحياء ... لكنها تقاليد ذلك الزمان ... ظل الأطفال يلاحقونهما بنشيدهم ... لم يحاول الفتى نهرهم ... فضَّلَ الإسراع فى السير ؛ ليبتعد هو وفتاته عنهم ... والأطفال خلفهما يتابعونهما ... أصبح الفتى والفتاة فى حالة ارتباك ... يدخلان حارة مظلمة أخرى ... ثم يعدلان عن السير فيها ... كانا يتلمسان فى طريقهما الحارات الأكثر إظلاماً ... ويستمر الأطفال فى الصياح ... لم يجد الفتى مخرجاً إلا بترك الفتاة ... انفصلا ... سار كل منهما فى طريق ... كادت جماعة الأطفال أن تعود إلى قواعدها ، بعد أن حققت انتصارها ، لولا تعثر الفتاة فى السير بمفردها ومحاولتها الجرى ، الأمر الذى شجع الأطفال على متابعتها ، وهم يصيحون صيحاتهم ، مع تنظيم الإيقاع بالتصفيق

بالأيدى ... أسرعت المسكينة فى السير ... مدت خطاها وهى تدلف إلى حارة صغيرة ، ثم اندست داخل أحد البيوت القديمة .

توقف الأطفال أمام البيت ... تساءل أحدهم : هل هو بيتها ؟ .. أم دخلته للاختباء به منا ؟ .

فى تلك اللحظة ، نادتهم سيدة مسنة ، كانت تجلس على عتبة باب بيتها ... سألتهم ... أجابوها ... قالت إنه منزل الفتاة ... وأضافت أنها تعرف الفتى أيضاً ، بعد أن علمت منهم أن بساقه اليمنى عرجاً خفيفاً ... إنه من سكان هذه الحارة ايضاً ... أخبرتهم بأنها سوف تخبر أمه بما حدث ؛ لأنها ترفض زواج ابنها من تلك الفتاة .

إنه لا ينسى ـ حتى الآن ـ وجه هذه السيدة المسنة فقد كان كئيباً ، والشر يطل من عينيها ، لاحظ هو ذلك عندما مدت المرأة يدها فى صدرها ... و أخرجت منديلاً صغيراً معقوداً ، فكت عقدته بأسنانها الصفراء.. ثم أعطت كلاً منهم تعريفة .. أى خمسة مليمات تشجيعاً لهم ، بعدما طلبت منهم الحضور يومياً إليها قبل المغرب... وانتظار الفتاة والسير خلفها ؛ إذ أنها تخرج فى مثل هذا الوقت ... ثم عودتهم للسيدة المسنة ، وإخبارها بما حدث ، ووعدتهم بأنها ستعطيهم قرشاً .. عشرة مليمات .. لكل واحد منهم . بعدها أسرع الأطفال يشترون الحلوى بما أخذوه منها .

يتذكر ، جيداً بعد مرور تلك السنوات الطويلة على تلك الواقعة أنه اشترى عسلية بالتعريفة ، وهى نوع من الحلوى ، كان يحبها ـ وقتها ـ لحلاوتها ...لكنه لاحظ يومها أن مذاقها قد تغير فى فمه فقد كان يشعر بمرارة فى حلقه . ويتذكر جيداً أيضاً أنها كانت المرة الأخيرة التى صاح فيها بذلك النشيد ... وكانت المرة الأخيرة أيضاً التى شاهد فيها السيدة ذات الوجه الكئيب .

سر اختفاء فردة الحذاء !

لكل منا مسألة ما تؤرقه ... يتذكرها دائماً بين الحين والآخر.. حتى ولو كانت غير ذات قيمة كبيرة . المسألة التى شغلت بالى طوال تلك السنين ، التى قاربت من الخمسين عاماً ... ولا أستطيع نسيانها ... ترجع إلى زمن طفولتى الأولى .

كنا وقتها نجتمع نحن أطفال شارعنا ، و نُشكِّل منا فريقين ؛ لنلعب الكرة الشراب ، بإحدى الحارات الضيقة ، المتفرعة من شارعنا . كنا نفضل اللعب بتلك الحارة ؛ لأنها الأقرب لبيوتنا التى لانستطيع الابتعاد عنها كثيراً ؛ ولهدوئها التام ، حيث تكون شبه خالية من المارة ... وبالطبع من السيارات التى كان مرورها منعدماً بالحارة فى ذلك الزمن البعيد .

كان يستهوينى اللعب حارساً لمرمى فريقى ، خاصة أننا كنا نسمح لحارس المرمى أن يحاور خصومه ، بل ويستطيع أن يسجل الأهداف فى مرمى الفريق المقابل ... وذلك يرجع لقلة عددنا .

منذ أن كُسِرَ لوح الزجاج بنافذة منزل الست أم عبده ، نتيجة اصطدام كرة قوية شاطها زميلى إبراهيم ، أصبح اللعب بعدها بالحارة محفوفاً بالصعاب ، فكثيراً ما كنا نسمع سباب بعض النسوة لنا لمنعنا من اللعب ، وأحياناً كان يُصب الماء على بعضنا ، فتبتل ملابسهم ، ونبتعد ، ولا نكمل المباراة ...

لكن سرعان ما ننسى .. ونعود إلى الحارة التى أحببناها لنلعب من جديد .

كنا نلعب حفاة على أسفلت الحارة ، وكان هذا من شروط اللعب حتى لا تصيب الأحذية سيقان اللاعبين . فلم يكن لدينا فى ذلك الوقت الأحذية " الكوتش " ... وبالطبع لم يتملك منا أحد بتاتاً حذاء يضيء فى الظلام ، كما هو حادث الآن ! .

قبل بدء المباراة يخلع اللاعبون أحذيتهم ، يضعونها مكومة بجوار حائط فى وسط الملعب تقريباً ، إلا أنا ، فحرصاً منى على حذائى الجديد أفضل أن أحدد به اتساع المرمى ، أى أضع فردة منه على يمينى ، والفردة الأخرى على يسارى ، بدلاً من استخدام قوالب الطوب، أو الأحجار .

فى إحدى المباريات ، أجدتُ اللعب بها إجادة تامة ، فقد منعت دخول مرماى عدة أهداف محققة ، بل أكثر من ذلك ، تقدمت مهاجماً عدة مرات ، وأحرزت هدفاً فى مرمى الخصم وانتهت المباراة بفوزنا ... و فرح جميع اللاعبين من فريقى إلا أنا ... فقد اكتشفت فقد فردة حذائى الجديد ... بحثت عنها فى كل الحارة .. لم أجدها ! .

نهرتنى أمى كثيراً ، منعتنى من اللعب عدة أيام ، لكن رويداً رويداً سمحت لى بالعودة للعب مرة أخرى ، فلم يكن فى جيلنا وسائل للتسلية متاحة ، كما هو حادث الآن من تليفزيون وفيديو وأتارى والعديد من مدن الملاهى و الترفيه .

عندما عاودت اللعب شغلت مركزى المفضل بالفريق ، وهو حراسة المرمى ، كنت حريصاً على حذائى وأنا ألعب ... فأطمئن على وجوده كل فترة ، لكن فى نهاية إحدى المباريات ـ مع حرصى الشديد ـ اكتشفت فقدى لفردة من الحذاء مرة أخرى ! .

و لا داعٍ لذكر ماحدث لى من أمى ، ولك أن تتخيله ، فأنا أخفى ذلك عن زوجتى و أولادى . لكن الذى أستطيع أن أقوله أننى مُنِعتُ من اللعب ما يقرب من الشهر . بعدها اجتمع شمل الأطفال مرة أخرى فى الحارة ؛ ليلعبوا الكرة . لكننى لم أحاول الوقوف فى حراسة المرمى ، و وقف زميلى رفعت بدلاً منى .

فى نهاية المباراة ، وجدت فردتى حذائى ، حيث وضعتهما مع أحذية لاعبى الفريق ، لكن المفاجأة أن زميلى رفعت حارس المرمى فقد فردة حذائه أيضاً .. رغم نصحى له لينتبه .

يا ترى ... ما سر اختفاء فردة حذاء فقط ؟ ... ظل هذا السؤال يشغل بالى طوال الخمسين سنة الماضية حتى الآن! .

سعيد الحرامى

بعدما يرتدى ملابسه ، ويتناول إفطاره ، ينتظرها ، ومعه حقيبة كتبه المدرسية ، فأمه تخشى عليه أن يذهب إلى المدرسة بمفرده ، حيث توجد السيارات المسرعة فى طريقه لذا فإنها تفضل أن يذهب مع ابنة شقيقة لها تسكن بالقرب منها ، وهى تلميذة تكبره فى السن ، مدرستها بجوار مدرسته ... دقائق وتصل تلك التلميذة بمريلتها الزرقاء ، والابتسامة فى وجهها ، ثم يستعدان لرحلة الذهاب ... توصيها الأم وهى تودعهما :

ـ مع السلامة ... امسكى يده و أنتِ تعبرين الشارع .

فى طريقهما تقابلهما عزيزة ، زميلتها فى المدرسة ، والتى تنتظرهما أمام بيتها يومياً ... قريبته وعزيزة تحبان المزاح مع الصغير الذى يرافقهما ... والصغير يضحك لضحكهما ... ويتقبل دعاباتهما ... وما باليد حيلة .

ذات صباح ، توقف الجميع على الطوار[١]، أشارت قريبته بأصبعها خفية ناحية رجل يجلس بعيداً على أرض الطوار المقابل ، يلتفح بشال أبيض ، ويبيع الفول النابت ،

---

(١) الطوار من الطريق : جانبه المرتفع قليلاً يمشى فوقه المشاة .. الرصيف

ثم طلبت من الصغير أن يتوجه إلى ذلك الرجل ؛ ليسأله عن دكان سعيد الحرامى ، و مـع

استغرابه الاسم ، فإن الصغير فضلاً عن كونه مؤدباً ، فهو مطيع أيضاً ، توجه مسرعاً إلى الرجل ... وبكل براءة سأله :
ـ لو سمحت يا عمى ... أين دكان سعيد الحرامى ؟

نظر إليه الرجل بغضب ، ثم انطلق يقذفه بسيل من الشتائم ، ثم يأمره بالانصراف قائلاً :
ـ امشى من قدامى فى هذا الصباح يا ابن الـ ...

يفزع الصغير ... تدمع عيناه ... لا يعرف كيف يتصرف ، إلاّ أن يهرب مسرعاً لقريبته وصديقتها ... كانتا غارقتين فى الضحك من هذا الموقف ... أخذتا تربتان على الصغير ليطمئن ... فى طريقهم سار الصغير حزيناً ... لكنه عرف أن ما حدث ، هو دعابة من تلك المداعبات ... فالرجل بائع الفول النابت اشتهر باسم " سعيد الحرامى " ؛ لقيامه بارتكاب حوادث سرقة فى الماضى ...

العلايلى ... سابقاً!

بَكَّرَ[٢] مع شقيقه الأكبر بالسيارة ، إلى بلدة أمهما التى رحلت عن الدنيا منذ أعوام . بالرغم من اعتزازهما بتلك البلدة ، إلاّ أنهما منذ انتقالهما مع الأسرة إلى الإسكندرية ، لم يترددا على المنصورة إلاّ عدة مرات قليلة ؛ للقيام بواجب عزاء ، أو لحضور جلسات بالمحكمة ، التى تنظر إحدى قضايا الإرث .

اليوم يذهبان لحضور اجتماع عائلى ؛ لحسم نزاع آخر بين الشقيق الأصغر وابنة خالتهما التى تمتلك معظم أجزاء المنزل محل نزاعهما ، والذى آلَ إليها بالميراث وبالشراء من بقية الورثة الآخرين ، عدا نصيب هذا الشقيق الأصغر .

قال شقيقه الأكبر ، دون أن يلتفت إليه ؛ لقيادته السيارة :

ـ أسرعت أنا ببيع نصيبى لها ؛ منعاً من الدخول فى نزاعات قضائية ، يكفينا القضية الأخرى ، لقد كبرنا و صحتنا لم تعد تحتمل السفر ؛ لمتابعة القضايا .

صمت برهة ، ثم أكمل حديثه لشقيقه :

ـ هى تعرض عليك شراء المتر بألف جنيه ... اقبل عرضها اليوم .

ـ المتر حالياً ثمنه فى بعض الأماكن خمسة أو ستة آلاف .

---

(٢) أَسْرَعَ

ـ هذا فى الشوارع التجارية ، مثل السكة الجديدة ... أما فى شارع العلايلى ... فالسعر مناسب .
ـ يغيظنى تأخيرها فى دفع نصيبى من الأجرة ... هل تفعل ذلك لتدفعنى لبيع نصيبى ؟ .

يسود الصمت بينهما برهة ، ثم يكمل الأخ الأصغر حواره مع شقيقه :
ـ كانت أمى لا تفكر فى البيع ... كانت تقول : " هذا البيت من ريحة جدتكم زينب ... إنه تذكار منها " .
ـ الله يرحمها ... قبل وفاتها نقلت ممتلكاتها لأولادها بالبيع .. بعد أن حددت نصيب كل منهم ... كانت تخشى خلافاتهم بعد وفاتها .
ـ الآن جميعهم ماتوا ... الجدة وأولادها .. والخلافات أصبحت مابين أحفادها ! ...

يصمت برهة ، ثم يكمل حواره :
ـ وكبر الأحفاد ، وصاروا أجداداً .

يعقب شقيقه الأكبر بقوله :
ـ لذا أنصحك بالبيع ؛ لتبتعد عن كل هذه المضايقات .
ـ لأ ... لن أبيع لها نصيبى ... و إذا لم تدفع المتأخر والأجرة بانتظام ... سأرفع قضية أطلب فيها فرز وتجنيب نصيبى ...

ولاستحالة الفرز سيباع البيت فى المزاد العلنى للغرباء .

- سيكون ثمنه رخيصاً ... لأن كل شققه تسكنها هى وأولادها ، ولا يمكن تعليته ... النزاع القضائى سيستمر لسنوات .
- و لو ، إنها تحاول أن تجبرنى على البيع .
- إذن ... بعه لتستريح .
- أعتز أنا كثيراً بهذا المنزل ، إنه مسقط رأسى ، ومدون اسم الشارع بشهادة ميلادى ... أما أنت فلم تولد به .
- أنت حر فى قرارك .

يمد الشقيق الأكبر يده اليمنى ممسكاً بشريط تسجيل لأم كلثوم ثم يدفع به إلى المسجل ، لحظات ويرتفع صوتها العذب بأغنية الأطلال ، فيسكت الشقيقان عن الكلام ، ويسرح كل منهما فى عالمه .

بعد فترة ، تصل السيارة إلى مدينة طنطا ، بعدها يدخلان فى طريق محلة روح ، يقطع الشقيق الأكبر الصمت ، قائلاً :

- هل تتذكر هذا الطريق قديماً ؟ لقد كان ضيقاً ، وخطراً ، وحوادثه كانت كثيرة ، خاصة فى الليل ؛ لعدم وجود إضاءة كهربائية ... الآن كما ترى .. تمت توسعته وإضاءته ، وأنشئ عدد كبير من الحوانيت بمنازل الفلاحين المطلة على الطريق ، فأصبح المرور به آمناً ... لقد تغير حاله تماماً .

يهز الشقيق الأصغر رأسه علامة الموافقة ، وهو يقول :

ـ كل شئ يتغير ... و لا يبقى شئ على حاله ... إلاّ وجه ربك .

يعودان للصمت ثانية ، بينما تواصل أم كلثوم الغناء ، ينظر الأخ الأصغر من نافذة السيارة للحقول الخضراء الفسيحة ، وللسماء الصافية ، ولأبى قردان حيث يعلو طائراً فى مجموعات ، ثم يهبط بعضها على تلك الحقول ، منظر خلاب ، أعاده لهدوئه ، ولذكريات أيام طفولته ، حينما كان يقيم بذلك المنزل ، ويتذكر شلة الأصدقاء فى ذلك الوقت ... عبده الجندى ... ورفعت أبو العينين ... وإبراهيم ... والمتولى حويدق ... وغيرهم ، ويتذكر جلساتهم المسائية بأسفل عمود الإنارة بالشارع ، أو على عتبة منزله ، أو منزل أحدهم ... يستمتعون بسماع حكايات بعضهم ... يشاركون فى الإجابة عن فزورة ... أو يحاولون الإجابة عن سؤال ألقاه أحدهم ... كانت بعض الأسئلة ـ وقتها ـ صعبة على ذهنهم ، لا يعرفون الإجابة الصحيحة عنها ... يبتسم وهو يتذكر أحد هذه الأسئلة ... سألهم عبده ذات مرة قائلاً :

ـ هل الملك يموت ؟

اختلفوا جميعاً فى الإجابة .. لكنه يتذكر جيداً عندما عاد للمنزل ... أسرع يسأل والدته عن الإجابة الصحيحة .. ويتذكر أنها ضحكت وهى تجاوبه ... كان ذلك بطبيعة الحال قبل الثورة بسنوات .

ويتذكر صديق طفولته إبراهيم ، وهو يمسك بعصا نزعها من قفص مصنوع من جريد النخل ... متخيلاً أنه يمسك سيفاً يلوح به

فى الهواء ، وهو ينشد بحماس أغنية كانت مشهورة وقتها ، أيام حرب فلسطين .

يتذكر مطلع الأغنية ... يدندن بها ... بينما ينقر بأصابعه على باب السيارة :

" يا مجاهد فى سبيل الله ..... جه اليوم اللى بتتمناه "

" احنا عرب أصلنا معروف ..... فن الحرب احنا بدعناه "

يحادثه شقيقه الأكبر ، فتتوقف الذكريات ، يستمع له مصغياً :

- قربنا من المحلة الكبرى ... أترغب فى زيارة أولاد عمنا ؟

- فى العودة أحسن ... حتى لا نتأخر عن موعدنا .

يصمتان مرة أخرى ، ويعود الأصغر لذكرياته وأيام طفولته ، لكن هذه المرة كانت ذكرياته حزينة ... أليمة ... بالرغم من مرور ما يقرب من خمسين عاماً عليها ، إلاّ أنه يتذكرها جيداً ، كأنها وقعت بالأمس القريب .

يتذكر كيف كانوا وقتها يلعبون الكرة فى الشارع ، هو وشلة الأصدقاء ، ثم توقفوا ؛ ليستريحوا قليلاً ... ليلتقطوا أنفاسهم ، وليمسحوا عرقهم ، بعد أن خارت قواهم ... فقد كان الجو شديد الحرارة فى ذلك اليوم ... فاقترح أحدهم أن يذهبوا ليستحموا فى النيل ؛ ليرطبوا أجسامهم .. أسرع غالبيتهم بالموافقة .. أما هو فلم

يستطع أن يجاريهم هذه الجرأة ... فتعليمات العائلة المشددة له ، ألاّ يبتعد عن المنزل ... لذا فإنه عاد إلى بيته ... فى المساء عم الحزن الشارع كله ... وعلم أن إثنين من الأطفال قد غرقا فى النيل ... أحدهما المتولى صديقه ابن شارعه ... وكان هذا أول الأصدقاء الذى افترق عنه بالموت .

أخيراً ... يصلان إلى المنصورة ... يقطع الأخ الأصغر الصمت قائلاً :

- رغم حضورنا للمنصورة فى مناسبات مختلفة ... فلم أر شارع العلايلى منذ أكثر من ثلاثين عاماً ! .
- لابد أن معالمه تغيرت هو الآخر ...

يمران بالسيارة بجوار الساحة الشعبية ... يحدث الشقيق الأصغر نفسه ... لقد تغيرت تماماً .. كان سورها الخارجى من عيدان الحديد

... كانت الفتحات بين بعض العيدان تسمح لطفل نحيف مثله بالدخول ؛ لمشاهدة الألعاب الرياضية بها ... شريط سريع يمر أمامه عن تدريبات ومباريات كرة القدم ... كان يسعده أن يشاهد ضمن فريق المنصورة إثنين من نفس شارعه ... المحمدى وشقيقه الأصغر حسين ... ويتذكر اللاعب الأسود الذى كان يطلقون عليه على الأبيض ... ويتذكر كيف كان فى طفولته يسعده ـ وقتها ـ أن يجرى مسرعاً خلف الكرة إذا ما خرجت خارج الملعب ؛ ليمسك بها ، ويعيدها لحارس المرمى . لقد تغير شكل السور ، وأصبح مبنياً بالطوب والأسمنت . لفت انتباهه اللافتة المكتوب عليها مركز الشباب ... حتى اسم الساحة الشعبية تغير ... يبتسم وهو يتذكر اللافتة الرخامية التى كانت مثبتة بداخل الساحة ، ومسجل عليها تاريخ الافتتاح فى عهد صاحب الجلالة الملك المعظم.

يتساءل مع نفسه : هل يا ترى لازالت موجودة ؟.

ها قد وصلا إلى شارع العلايلى ... لاحظ الشقيق الأصغر وجود لافتة مثبتة على جدار منزل بأول الشارع ، مكتوب عليها " شارع نصار " ... توقفا عن السير بالسيارة ... هل ضلا الطريق ؟ ... سأل الأصغر أحد الرجال المارين :

ـ أليس هذا الشارع هو شارع العلايلى ؟

هز الرجل رأسه علامة الموافقة ، ثم أضاف :

ـ العلايلى سابقاً ... الآن اسمه نصار .

يبتسم الشقيق الأصغر عندما وجد الشارع ضيقاً ... بينما كان يظن ـ وهو طفل صغير ـ أنه متسع جداً .

يواصلان السير بالسيارة ... أمام المنزل يتوقفان ... يستعدان للنزول .. يكتشف الأصغر أمراً غريباً .. علت الدهشة ملامح وجهه

قال متعجباً لشقيقه :

ـ المنزل تغير ... لم يعد له باب يطل على الشارع .

بعد لحظات تأتى إليهما طفلة جميلة ، على شفتيها ابتسامة رقيقة ، فى الثامنة من عمرها ، تحييهما ... ثم تخبرهما بأن جدتها فى انتظارهما ... توضح لهما بأن مدخل المنزل أصبح يطل على الشارع الآخر الموازى للعلايلى ... تتقدمهما مسرعة على باب الشقة ، يستقبلهما أبناء وبنات ابنة الخالة ... يرحبون بهما والسعادة تبدو على وجوههم ... المقابلة أعادت للشقيق الأصغر ذكريات الزمن الجميل ... حين كان طفلاً صغيراً ، وزياراته لخالته وزوجها بعزبته ... وزياراته لابنة خالته هذه وزوجها الذى اشتهر فى العائلة بالكرم .

و تأتى ابنة الخالة ... تصافحهما بحرارة ... إنهما لم يتقابلا معها منذ سنوات طويلة ... فى تلك اللحظة يشعر الشقيق الأصغر بشئ من السعادة لهذه المودة العائلية ...

يلاحظ أن ابنة خالته قد تقدم بها العمر ... أصبحت تشبه والدتها تماماً ... خالته التى كان يحبها ؛ لعطفها عليه .

قالت ابنة الخالة موجهة حديثها لهما ، و هى تبتسم :

ـ لقد كبرتما ... شعركما أصبح لونه أبيض .

ثم يجئ الأحفاد ... الجيل الثالث الحالى ... يرحبون بالضيفين ... ما شاء الله جميعهم فى كليات جامعية مرموقة ... الابتسامات تعلو الشفاه ... فى حنان ينظر الأخ الأصغر لهم جميعاً ... إن أولاد ابنة خالته هم كأولاده ... وأحفادها كأحفاده ... وإن المنزل سيحمل ذكرى الجدة الكبيرة الحاجة زينب ... يقرر فى نفسه بأنه لن يرفع قضية لبيع البيت للأغراب فى المزاد ... يتمنى أن ينجح اللقاء اليوم فى إنهاء النزاع ... يتحقق له مايريد ... فى طريق العودة كان على شفتيه ابتسامة رقيقة .

عرض مستمر

و يأتى أكتوبر من كل عام ، حيث احتفالات النصر ، تُذَكِّره تلك الاحتفالات ؛ ليستعد باحتفاله الخاص ، لإحياء ذكرى رحيل والده عن دنيانا .

بعد رحيل والده ، كان يقيم . فى ذكراه السنوية . احتفالاً بحديقة المنزل الفسيحة ، يحضره العديد من أصدقاء أبيه ومعارفه والمريدين الذين يعرفون فضله ، حيث كان والده اجتماعياً محبوباً ، فكانوا يحرصون على الحضور سنوياً فى ذلك الموعد .

فى جلستهم تلك ، بعد استماعهم لآيات من الذكر الحكيم ، كانوا يتذكرون العديد من المواقف عن الأيام الجميلة التى مضت . عقب انصرافهم ، يبقى هو ساهراً مع ذكرياته ، يبحث و يفتش فى أوراق والده ، يسعد وهو يرى خط والده وتوقيعاته على بعض الأوراق التى يحتفظ بها . يتصفح ألبوم الصور ... يتوقف أمام بعضها .. هذه صورة لوالده مع بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وهذه مع الملك فيصل ، وثالثة مع الرئيس أحمد سوكارنو .. وصور أخرى عائلية كثيرة . معظم أصحاب تلك الصور رحلوا الآن مثله إلى العالم الآخر . تصفحه للأوراق ومشاهدته لصور والده يدخلانه فى إحساس حبيب إلى نفسه ، إنه يكاد يشعر بأنفاس وطِيب[٣] أبيه!

---

(٣) ما يُتطَيَّبُ به من عطر و نحوه

مع مرور السنوات ، ورحيل أغلب من كانوا يشاركونه الاحتفال بتلك المناسبة من أصدقاء أبيه ، أصبح يقتصر احتفاله بإحياء الذكرى على زيارة قبر والده مع بعض أفراد الأسرة لتلاوة سور من القرآن الكريم ترحماً عليه .

اليوم ، وهو يجلس مع بعض أفراد الأسرة بحوش المدفن ، يستمعون لتلاوة القرآن من بعض قراء المقابر ، يقفز إلى خاطره ، ذكرى ذلك اليوم الذى ضربه والده ضرباً مبرحاً بالعصا على قدميه وهو طفل صغير .

يحاول إبعاد تلك الذكريات بتركيزه فى الاستماع لكلمات الله عز وجل . لكن بعد انتهاء القراء من تلاوتهم ، وانصرافهم ... يعود مُلحّاً لخاطره ذكرى ضربه مرة أخرى .. هذه المرة اندفعت الذكريات فى صور واضحة كأن أحداثها وقعت بالأمس القريب فقط .

يتذكر أنه كان وقتها بالسنة الثالثة الابتدائية بمصر الجديدة ، وكعادة والده كل خميس ، كان يعطيه عشرة قروش للفسحة ، ومثل هذا المبلغ يعطيه الوالد لكل واحد من أشقائه . وهذا المبلغ كان يسمح بشراء تذكرة دخول للسينما ، مع شرب زجاجة من المياه الغازية ، ويتبقى بعض النقود منها .. إنها أسعار بداية الخمسينيات

كان يذهب مع إخوته إلى دار سينما نورماندى ، التى تعرض الأفلام الأجنبية ، فى حفلة السادسة مساء ، ثم يعودون جميعاً إلى المنزل فى حدود العاشرة مساء ... دون تأخير ... هكذا كانت طقوس الخميس من كل أسبوع ... وهو اليوم الوحيد المخصص للفسحة أيام الدراسة .

و يتذكر كيف أن بعض تلاميذ فصله ، اتفقوا على الذهاب إلى دار سينما كشمير ، التى تعرض الأفلام المصرية ، حيث يُعرض بها فيلم " عفريته هانم " للراقصة سامية جمال .

ويتذكر وهو فى هذه السن الصغيرة ، كيف كان يستمع بشغف لزميليه نصر وحسانين ، وهما يتحاكيان عن فتنة وجاذبية تلك الراقصة . بعدها دعياه للذهاب معهما لمشاهدة الفيلم ، فيلبى طلبهما بالذهاب معهما يوم الخميس .

بعدما انتهى العرض ، وحان موعد الانصراف ، أصرَّ زميلاه على البقاء ، وطلبا منه البقاء أيضاً ؛ لمعاودة ومشاهدة الفيلم مرة أخرى ، خاصة أنهم لن يدفعوا مليماً لشراء تذكرة جديدة ، فالسينما عرض مستمر ، ويسمح نظامها بذلك ، ويوافق على رغبتهما ، ويشاهد معهما الفيلم مرة أخرى .

عندما خرج مع زميليه من السينما ، اكتشف أن الساعة جاوزت منتصف الليل ، فأسرع الخطى مضطرباً ... أمام المنزل وجد والده جالساً على كرسى ينتظره ، والقلق والغضب باديان على وجهه .

بالداخل استقبلته أمه وإخوته .. كان شعورهم ممتزجاً بالفرحة لعودته ، وبالغضب لتأخره ليلاً ... علم منهم أن والده كلف شقيقه الأكبر بالسؤال عنه بقسم الشرطة ، وبالإسعاف ؛ للاطمئنان عليه ، خشية أن يكون تأخيره راجع لاصطدام سيارة به ، والعياذ بالله . شرح لهم ببساطة ماحدث تفصيلاً ، والسبب يرجع للعرض المستمر.

لم يقتنع والده ، ولم يقبل عذراً لهذا التأخير .. فقد كانت العودة فى العاشرة مساء أمراً مقدساً . لهذا فإن والده أمره بخلع حذائه ، وأن يستلقى على ظهره ، مع رفع ساقيه لأعلى ، واللتين أمسكهما جيداً شقيقه الأكبر ، بينما قام الوالد بضربه على قدميه بعصا من الخَيزُران ، وهو يردد عبارة :

ـ تحرَّم تتأخر ؟

و يصمت الصغير ، ولا يعرف كيف يجيب ... مبتلعاً الألم ، فلا يصرخ أو يتأوه أو يبكى ... وأمام صمته هذا ، يواصل والده الضرب ، مكرراً عبارة " تحرَّم تتأخر " .

تنقذ الشقيقة الكبرى الصغير ، بقولها له :

ـ قل حرَّمت .

فيجيب بصوت خافت :

ـ حرَّمت .

على الفور يكف الوالد عن ضربه ، ويخرج من الحجرة ، وفور خروجه منها ، يلتف الجميع حول الصغير ، يخففون عنه بكلمات لتطييب خاطره ، وفى صمت يتجه الصغير إلى سريره حزيناً .

صور الذكريات توالت متلاحقة ، والصغير جالس بالمدفن ، ويتذكر كيف أن شقيقته فى صباح اليوم التالى ، طلبت منه التوجه إلى حجرة والدهما ؛ ليعتذر ، وليخبره بأن تأخيره لن يتكرر . ويتردد الصغير فى تلبية طلبها ؛ خشية أن يعاود الوالد ضربه ، لكنها تشجعه بقولها له فى همس :

ـ هو طلب منى أن أفعل ذلك ... يريد أن يصطلح معك .

عندما دخل حجرة والده خائفاً ليعتذر ، وجد والده يشع من عينيه الحنان ، برغم الصرامة التى تبدو على ملامح وجهه .

و يتذكر الصغير الذى كبر ، كيف أن تلك الواقعة كانت سبباً لفلاحه ونجاحه فى ذلك العام والأعوام التى تلته ، حيث ابتعد عن زميليه اللذين رسبا فى الامتحان عدة سنوات ، وتعثرا فى الدراسة ولم يكملا المرحلة الثانوية ...

الشفاه من أفراد الأسرة تتحرك فى صمت ، وهم يتلون آيات من الذكر الحكيم . و كأنه يحدث والده ، وهو فى مرقده .. كم يشتاق هو لحضن أبيه ... و كم يود أن يُقبِّلَ يديه .

الصمت أفضل

و نحن بالمرحلة الثانوية ، كنا نقف بالصيف ، أمام منزل أحدنا بميدان الإسماعيلية بمصر الجديدة إلى أن يكتمل حضور الأصدقاء . ثم نواصل السير نتسكع فى الشوارع أو نجلس فى حديقة العروبة ، فقلة ما معنا من نقود لا تمكننا من أن نفعل أكثر من ذلك .

لذا فلم يكن لنا من وسيلة ترفيه ، إلاّ أن يتحدث أحدنا بينما الآخرون يستمعون له ، ولم يخل الأمر من تعليقات طريفة على الحديث .

كان من بين الأصدقاء من يحكى عن مغامراته مع ابنة الجيران وإن كنا نعلم أن حبه من طرف واحد فقط ؛ لأنها لا تبادله الهيام الذى يعيش فيه . عندما كان يقص علينا آخر تلك المغامرات ، كان زميلنا سامى يعلق على ذلك بالغناء ... كان يغنى مقطعاً من أغنية لفريد الأطرش ، مقلداً صوته ، قائلاً :

الحب من غير أمل ... أسمى معانى الغرام

و نفهم نحن ما يرمى إليه من الغناء ... فنطلق ضحكاتنا العالية .

أما صديقنا شوقى ، الذى يهوى الشعر ويعشقه ، لكن لايجيده فإنه إذا مَنَّ الله عليه بشئ جديد من شعره ، كانت أمسيتنا فى ذلك اليوم شعرية ، حيث يلقى علينا ما جادت به قريحته ، طالباً منا أن نبدى الرأى نحوه ، وهل الأفضل تلك الكلمة ، أم يستبدلها بكلمة أخرى ... ويصبح الجميع نقاداً فى الشعر ...

يتحدثون فى وقت واحد ... بآراء كلها مختلفة ... لكنها تتفق جميعاً على مهاجمته .

لكن شوقى لم يعد يسمعنا شعره ، بعدما قال أبيات من شعر إدعى بأنها من تأليفه ، ثم يتبين لنا بعد ذلك أنها من تأليف أحد كبار الشعراء .

و صمت شوقى ، أعطى الفرصة لكى يتحدث إبراهيم ذو العضلات المفتولة ، وهو الأطول و الأعرض والأقوى منا ؛ ليتحدث عن تدريباته التى يتمرنها بالنادى صباحاً ، وعن بطولته التى حصل فيها على الحزام الأسود . كان يتحدث بحرية ، فلا أحد يعترض على حديثه ، أو يعلق مازحاً معه ، فالكل كان يخشى بطشه .

كنت أنا بينهم ، الوحيد الذى يستمع فقط ، كان هذا الأمر يؤلمنى ، أريد أن أتحدث مثلهم ... فلا أستطيع ... لم يكن لى مغامرات عاطفية فى ذلك الوقت ... ولم أكن أهوى الشعر أو الأدب عموماً ، و لم أكن رياضياً ، فجسمى القصير والنحيل ، وخشيتى من كسر النظارة ... كل هذه الأشياء أبعدتنى عن ممارستها ...

رغم ذلك عزمت أن أكون مثلهم ، و أن أتحدث فى كل شئ ، و أن يستمعوا لى و لو مرة واحدة ... لقد استمعت إليهم كثيراً ...

فى ذلك اليوم كنا نقف بميدان الاسماعيلية ، وقد اكتملت مجموعة الأصدقاء ؛ لتبدأ رحلة التسكع . عزمت بكل قوة أن أكون المتحدث الوحيد هذه الليلة ...

و لا بد لى أن أبدأ ، ساعتها شاهدت فتاة جميلة ، ترتدى فستانا زاهياً ، فى الخامسة عشر ربيعاً من عمرها ، تسير بخطوات جادة على بعد منا ، كانت المرة الأولى التى أشاهدها ... خطر ببالى ساعتها أن أدعى بأنها فتاتى ...

قلت موجهاً حديثى للأصدقاء :

. أنا مضطر للاستئذان منكم بعض الوقت ... ثم العودة إليكم .

ثم أشرت بأصبعى تجاه الفتاة ، قائلاً بثقة :

. هذه هى الفتاة التى أحبها ... سأكلمها ، ثم أعود إليكم .

قَطَبَ إبراهيم جبينه فى غيظ ، و سألنى :

. تعرفها ؟

أجبته متعالياً ، و قد أسعدنى أن حديثى كان له هذا الاهتمام من إبراهيم :

. طبعاً .

. تعرف اسمها ؟

. أقول لك إنها حبى ... وحب متبادل ، و ليس من طرف واحد ... فهل بعد ذلك لا أعرف اسمها ؟

وعلى الفور سدد إبراهيم لكمة قوية لى ، أطاحت بى أرضاً ... بعدها علمت من الأصدقاء ، وهم يطيبون خاطرى ... أن إبراهيم فعل ذلك لأن الفتاة هى شقيقته ... اعتذرت له ... واعترفت له بكذبى ... وعدت بعدها أسير صامتاً بين شلة الأصدقاء ... مقتنعاً بأن الصمت أفضل .

بِسْ ... بِسْ ![٤]

لولا ابتسامتها الرقيقة لى ، وحمرة الخجل التى اكتست وجهها الجميل ، حين تلاقت عيوننا لأول مرة ، لما انقلب حالى هكذا ... صرت هيمان معذباً ... فكرى مشوش ... لا أستطيع التركيز فيما أطالعه ، فصورتها هذه أصبحت تطل علىَّ فى صفحات أى كراسة ، وفى كل كتاب أقرأه .

لكن كيف حدث لى هذا ؟

أَ كُلُّ هذا يحدث من جراء سماعى لكلمة بِسْ .. بِسْ .. عدة مرات ؟ حين سمعت هذا الصوت يتردد .. خرجت إلى شرفة مسكنى بالطابق الثانى لأستطلع الأمر .. وجدتها تقف بسحرها الفتان بنافذة مسكنها فى الطابق الثالث بالمنزل المواجه لنا .. كانت هى التى تحدث ذلك الصوت ... لعلها كانت تستدعى قطتها . حين تلاقت عيوننا ... خَجَلَتْ ... ثم ابتعدت عن النافذة ... أما أنا فقد أحسست بهذا الشعور الغريب الذى انتابنى ... و لا زلت أعيشه حتى الآن ... أخذت أجول بنظرى بحثاً عن قطتها ... لم أجدها ... لقد أحببتُ قطتها دون أن أراها ، عندما أجدها سوف أداعبها .. و أنادى عليها
بقولى : بِسْ ... بِسْ ... مثلها ... ستكون تلك القطة همزة الوصل بينى و بين معبودتى .

---

(٤) بِسْ ... بِسْ : صَوْت تُدعى به القِطة لتُقْبِل

هذه الفتاة فى مثل سنى ... فى السابعة عشر من عمرها . من أجل رؤيتها أصبحت أقف فى الشرفة كثيراً ... أشاهدها تأتى إلى نافذتها ... عندما ترانى تعود للاختفاء ثانية ... إنها خجولة جداً .. كم أحب هذا الخجل فى الفتاة ... إنه يزيدها كمالاً و جمالاً .

كثيراً ما أسمعها تحدث ذلك الصوت .. بِسْ ... بِسْ ... من نافذتها ... فأسرع أنا إلى الشرفة ... الخجل الذى تطبعتْ عليه يجعلها تبتعد قليلاً عن النافذة إلى داخل الحجرة ... أعلم أن الفتى هو الذى يجب عليه أن يبدى إعجابه بالفتاة ... و أن يتجرأ محاولاً البدء بالتحدث إليها . ألا يكفينى ابتسامتها الرقيقة لى ... والتى عبرتْ بها عن شعورها نحوى ؟ ... نعم سوف أتجرأ و أبدأ بمحادثتها عندما تأتى الفرصة المناسبة .

السهاد عرف طريقه لى ، لم أعد أستطيع النوم ليلاً ... أصبحت أفكر فيها طوال الوقت ... أحلم بأن ارتبط بها بعلاقة شرعية ... إنها ستكون زوجة صالحة ... سألت نفسى : هل يمكن أن أخطبها الآن ؟ ... حقيقة أننى لا زلت طالباً بالثانوية العامة ، لكننى من أسرة ريفية ، و كثيراً من أفراد عائلتى تزوجوا ، وهم فى مثل سنى هذه .

هكذا عشت فى سعادة و أنا افكر فيها ليلاً ونهاراً ... إلى أن جاء ذلك اليوم الذى استمعت فيه إلى صوتها ... وهى تنادى على قطتها المجهولة لى ...

لم أستطع أن أخرج إلى الشرفة وقتها ... فقد كنت أتحدث مع والدى ... والذى طلب منى الخروج لشراء بعض الأشياء ... فأسرعت بارتداء ملابسى ... و خرجت بعيداً عن مسكننا قليلاً ... وجدت فتاتى ... متأبطة ذراع ذلك الفتى الجامعى الذى يسكن فى الطابق الثالث فوق شقتنا .

كان حزنى شديداً ... وصدمتى فى فتاتى مؤلمة .

بعدها عرفت أنها كانت تحدث ذلك الصوت ... إعلاماً لفتاها بأنها ستغادر مسكنها إلى الخارج كى يلحق بها . إنها لم تكن تستدعى قطة ... بل تستدعى ذلك القط الجامعى ! .

... و للكبار رؤية

كان كل همه استذكار دروسه ؛ لينجح بتفوق فى نهاية العام ؛ لذا فقد حصل سعد على مجموع كبير فى الثانوية العامة ، مكنه من الالتحاق بكلية الطب ... برغم اختلاطه بالجنس الناعم فى الكلية فإن عواطفه لم تتحرك ، و لم يحد عن أسلوب حياته ، و هو الاستذكار فقط ؛ للنجاح بتفوق ! .

فور تخرجه ، تعين بوزارة الصحة ، بإحدى الوحدات الريفية ، هناك بالقرية وجد مجتمعاً جديداً ، شعر فيه بالغربة ، لكن الممرض عبد السلام هون عليه الأمر ، خاصة فى أيامه الأولى ، حيث كان يلازمه و يقص عليه حكايات و سير أهل القرية .

ذات صباح أخبره عبد السلام بأن الحاج فؤاد يرجوه الحضور لمنزله ؛ للكشف الطبى على ابنته ليلى ، وحدثه عن أفضال عائلة الحاج فؤاد لأهل القرية ، حيث تسابقوا للتبرع عند إنشاء المدرسة و السنترال بالقرية ، و أضاف بأن الوحدة الصحية التى يعملان بها بنيت على قطعة أرض من ممتلكاتهم ، تبرعوا بها .

أسرع سعد ملبياً رغبة الحاج فؤاد ، الذى قابله بترحاب هو وأهل بيته ، حضرت إليه بقاعة الضيوف ليلى ، الابنة المريضة ، توقع سعد أنه سيكشف عليها و هى بسريرها ، لكن توقعاته خابت ،

فهاهى تقابله بالقاعة بكامل زينتها ، شكت له من نزلة برد خفيفة ؛ نتيجة لسفرها يومياً لكليتها فى الصباح المبكر ، فهى لا زالت طالبة بالجامعة . انتهزت الفرصة أمها ، و شكت أيضاً من آلام روماتيزمية بساقيها ، وصف لهما العلاج ، وهمَّ لينصرف ، لكنهم أبقوه بعض الوقت ؛ ليتمكنوا من ضيافته .

فى طريق عودتهما ، استفسر عبد السلام منه ، عما إذا كانت توجد فى حياته ، من ينوى الارتباط بها كزوجة ، أجاب سعد بالنفى عندئذ بادره عبد السلام بسؤال قائلاً :

ـ و ما رأيك فى الآنسة ليلى ؛ لتكون زوجة لك ؟

ـ لم أفكر فى أمر الزواج بعد ، فضلاً عن أننى غير مستعد مالياً .

ضحك عبد السلام ، ثم قال :

ـ المال ؟ .. لا يهم المال ... سوف تنعم به لو وافقت .

فى تلك الليلة ، لم ينم سعد ، فلم يكن له تجارب مع الجنس الآخر ، وليلى بحديثها الساحر ، وصوتها الناعم ، أيقظت فيه مشاعر عاطفية ، كانت دفينة فى صدره ، فضلاً عن أحاديث عبدالسلام عن أسرتها ، و إمكانية الاقتران بها ... كل هذا شغل فكره و باله بليلى ! .

فى مساء اليوم التالى ، أخبره عبد السلام بما تحدث فيه مع أم ليلى فيما لو تقدم الطبيب إليهم لخطبة ابنتهم ، وقد أحاطها بظروفه المالية ، وحدثه ايضاً بأن الأم لم تمانع ،

بل رحبت ، لاسيما وأنه قد حاز إعجاب الجميع بما فيهم ليلى ، و أنهم فى انتظار زيارته لهم و معه أسرته . همس عبد السلام ناصحاً سعد بضرورة أن تتم الزيارة سريعاً ؛ لأنه علم بأن هناك من ينوى التقدم لخطبتها ! .

فى العطلة الأسبوعية ، سافرسعد فرحاً لأسرته بالمدينة ، هذه هى زيارته الثانية لهم منذ التحاقه بالعمل ، كانت فرحة والديه وإخوته به كبيرة ، أراد أن يسعدهم أكثر ، و يشيع جواً من البهجة بينهم ؛ فأخبرهم بعثوره على شريكة حياته ، والتى تعرف أسرتها بظروفه المالية ، أى أنه لن يتكلف شيئاً ، فقط أنهم يطلبون صحبة والديه معه عندما يزورهم لطلب يد ابنتهم ، كتقاليد أهل الريف !.

تباينت ردود أفعال الأسرة ، إخوة سعد فرحوا بهذا الخبر ، بينما والده صمت مفكراً ، و علامات التعجب ارتسمت على وجهه لهذه السرعة ، فإبنه لم يمض بالقرية إلاَّ أياماً معدودة ، أما أمه فقد استعلمت عن عائلة من ينوى خطبتها ، أجاب ابنها على الفور متفاخراً ، بأنها عائلة دائمة التبرع للمشروعات الخيرية بالقرية ، وهو ما يدل على ثرائها و معدنها الطيب ! . بعدها طلب من والديه أن يسرعا بالسفر للقرية ؛ خشية أن يسبقه الشخص الآخر .

بعد تفكير ، يعتذر الأب بلطف ؛ بحجة أن صحته ليست على مايرام ، و يطلب إرجاء الزيارة عدة أيام ؛ حتى يتمكن من أن يسترد عافيته.

عاد سعد إلى عمله حزيناً ، غاضباً من والده ، و معتزماً أن يتقدم لخطبة ليلى بمفرده ! .

فى اليوم التالى لعودته ، عُقِدَ اجتماع برئاسة مدير الشئون الصحية بالمحافظة ، حضر الاجتماع الأطباء بالوحدات الريفية ، شاءت الأقدار أن يجلس بجوار سعد الطبيب الذى كان يعمل قبله بالوحدة ، ما أن تعارفا إلاَّ ويبادره الطبيب بالسؤال عن عبد السلام.
قال له وهو يضحك : " احترس منه ، فهو ممرض ، ويعمل خاطبة فى نفس الوقت ! " ، بعد الاجتماع حرص سعد أن يعرف من زميله كل شيء عن عبد السلام ، أخبره بأنه كان سيوقعه فى مطب الزواج من ابنة رجل بالقرية يُدعى الحاج فؤاد ، كان قد زارهم فى منزلهم كطبيب بناء على استدعائهم ؛ للكشف على ابنتهم المريضة ليلى ، و التى كانت تشكو وقتها من صداع برأسها ، بعدها عرض عليه عبد السلام فكرة الزواج منها ، و سهل له الأمر ، وتمت قراءة الفاتحة ، بين الأسرتين ، بعدها اكتشف أن والد ليلى وأعمامها حصلوا على ثرواتهم من تجارة المخدرات ، و أن أبناء القرية من الأسر الطيبة ، يعزفون عن الزواج منهم ؛ لذا فإن عائلة الحاج فؤاد تسعى لأن تزوج بناتها من موظفى القرية الغرباء . وأضاف الطبيب وهو يحدث سعد قائلاً :
- "حتى ابنتهم ليلى هذه ، علمت من قريب لى بكليتها بأن سلوكها غير سوى.. فأسرعت هارباً منهم.. وطلبت نقلى لوحدة أخرى" .

عندما عاد سعد إلى عمله ، لم يشأ أن يخبر عبد السلام بما وصل لعلمه ، أصبح يتحاشى دردشته تدريجياً ، لاغياً فكرة التقدم لطلب يد ليلى من أسرتها .

فى العطلة الأسبوعية التالية ، أسرع سعد لزيارة والديه وإخوته ، قوبل بالفرح ككل مرة ، قال والده وهو يبتسم :

ـ " الحمد لله .. صحتى الآن تمكننى من السفر ؛ لطلب يد من تريدها ، لقد أمهلتك فترة من الوقت ؛ لتسأل عن أهلها ، فمنهم سيكون أخوال وخالات أولادك فى المستقبل بإذن الله ... ولعلك فعلت " .

رد عليه سعد بصوت خفيض :

ـ لقد عدلت عن فكرة الزواج الآن ، و أرجأت ذلك لما بعد حصولى على الدراسات العليا .

لم يخبرهم سعد بالحقيقة ؛ خجلاً من تسرعه ... وعند وداعه لأسرته عائداً لعمله ، أصرّ على تقبيل يد والده ، على غير عادته !.

إمرأة جميلة ... لا تتزين !

مرت السنوات سراعاً ، الآن يستعد لمناقشة رسالة الدكتوراه بالسوربون ، خلالها كان قاسياً على نفسه ، فقد ابتعد عن مباهج باريس العديدة ، كل همه تركز لجمع المادة العلمية لرسالته ، لم تشغله فتيات باريس الجميلات و لا السائحات ، عن هدفه ، لم يروح عن نفسه إلاّ قليلاً ... بعض رحلات جماعية ، التسكع وحيداً ، أو مع زميل له بشارع الشانزلزيه ، أو بشارع سان ميشيل بالحى اللاتينى ؛ لمشاهدة المعروضات بواجهات المحلات ، و أحياناً يتناول الوجبات الخفيفة بمطاعم الحى اللاتينى الرخيصة .

أما إذا ضاق صدره للاغتراب ، فإنه يفر لحدائق لوكسمبورج ؛ للتمتع برؤية الزهور البديعة ، و الورود الزاهية الألوان ... فتهدأ نفسه فى الحال ، و سرعان ما يعاود العمل فى إعداد رسالته .

أحياناً أخرى كان يذهب إلى حى بيجال ، حيث تقف بشوارعه بعض الغانيات ، لعرض أجسادهن لطلاب المتعة الرخيصة ، كان يشاهدهن متعجباً ، و متسائلاً : أيحدث هذا تحت سمع و بصر رجال الشرطة بزيهم الرسمى ؟! . فى كل مرة كان يذهب ؛ لمجرد الفرجة فقط ، فتربيته الريفية تأبى عليه أن ينزلق إلى هذا الحضيض ، وسرعان ما يمل الفرجة و يشمئز من رؤيتهن ، يعود بعدها محتمياً

بكتبه و دراسته بالنُزُل الذى يقيم فيه ، هو و بعض زملائه ... زملاؤه المبعوثون من جنسيات مختلفة .

سرح بخياله ، وهو مستلق على سريره ، تخيل عودته إلى مصر ، حاملاً لقب الدكتوراه ، حقيقة أن بعض الطلبة بالكلية كانوا ينادونه " يا دكتور" ... لكنه يعلم أنهم يقولونها من قبيل الاحترام والمجاملة ... الآن الأمر اختلف ... وكاد الحلم الذى تمناه يصبح حقيقة .

اتسع خياله و امتد إلى من ودَّ الارتباط بهن ... مرت صورهن أمامه ، و هو مستلق على سريره ... ياه ... كلهن إما تزوجن أو خطبن !! ... أيندم لعدم خطبته لإحداهن ؟ ... ماحدث قد حدث ... ولايفيد الندم ... و عليه أن يبحث من جديد ، عن فتاة تليق بوضعه كدكتور جامعى .

لا يدرى لماذا قفزت صورة وجه " كريستين " الآن أمامه ، وهو يفكر فى البحث عن شريكة حياته ، هل شعوره الباطن هو الذى دفع بصورتها ؟ ... ربما ! .

يسأل نفسه : و هل توافق يا دكتور أن تتزوج من أجنبية ؟
و لِمَ لا ؟ إن كثيراً من حملة " الدكتوراه " عادوا بعد انتهاء مهمتهم ومعهم زوجاتهم الأجنبيات ... كانت معظم تلك الزيجات ناجحة .
وأهل البلد ؟ ... إنهم سيقدرونها ... و يكفى أنها لا تضع على وجهها أية مساحيق أو أصباغ ... فإنها لا تتزين مطلقاً .

و كريستين هذه ... هى سيدة الاستعلامات بالنُزُل الذى يقيم فيه ... فى الثلاثين من عمرها ... شد انتباهه إليها ... نظرات الحزن التى تطل من عينيها ... جمالها هادئ ... ترتدى الملابس السوداء دائماً ، فتزيدها جمالاً ؛ لبياض جسدها .

يتذكر أول مرة تحدثت فيها برقة باريسية معه ... كانت تطلب منه ـ بخجل ـ طوابع البريد المصرية ، بعد نزعها من الخطابات التى تصل إليه ... داوم على إعطائها كل طوابع البريد التى لديه ، و كذلك التى تصل لبعض المصريين من زملائه ... و كان هذا مدخلاً للأحاديث بينهما ... زادت الصلة أكثر بعدما علم ولعها بكل ما هو مصرى .. يتذكر ما قالته من أنها كانت متزوجة من أجنبى ، يوغوسلافى الجنسية ... لكنها طلقت منه ، وأن سر حزنها ، يرجع إلى أن ابنها ، يقيم مع أبيه بيوغوسلافيا !.

ترك السرير ، هبَّ واقفاً ، و قد عزم و توكل ، أن تكون كريستين هى زوجة المستقبل ... لكن بعد أن يعرف كل شئ عنها ، أخذ يكثر من الحديث معها ، زالت الكلفة بينهما ، اقتربا أكثر وأكثر و دون أن يصارحها بنيته ، دعاها لنزهة سوياً يوم عطلتها ، لم تمانع ، أراد أولاً أن يعرف أسباب انفصال زوجها عنها ، رغم جمالها الفائق ، سألها بالدهاء الفلاحى :

ـ ألا يمكن عودتك لزوجك ، و لو من أجل ابنك ؟

سكتت قليلاً ... ثم قالت :

. أعتقد أنه يستحيل ذلك .

سره ردها فى داخله ، و إن أظهر علامات الأسى على وجهه .

عاد متخابثاً يسألها :

. و ما السبب الذى دعاه للانفصال ؟ ... إنكِ جميلة ، و أى رجل يتمنى الارتباط بكِ كزوجة .

. كان زوجى يجد صعوبة فى العمل هنا ... يوم يعمل .. و عشرة أخرى لا يعمل .. وأجرى فى عملى السابق كبائعة ملابس لا يكفينا كان يسافر إلى بلده ليعمل عدة شهور ، و عندما يعود كانت النقود لا تكفينا إلاّ أياماً قليلة . فكنت أعمل دون علمه فى وقت فراغى ، كان عملاً أجره أوفر و جهده أقل .. لما علم غضب منى .. طلقنى والمحكمة سلمته ابنى ليرعاه هو ... لم يقدر جميلى له .

يحدثها مستنكراً تصرف زوجها :

. هل هذا معقول ؟ .. تعملين لتساعديه ، فيغضب ! .. و يطلقك ! ... و ماذا كنتِ تعملين إذن ؟

أجابته بعد تردد :

. كنت مضطرة لأبيع جسدى فى بيجال !

وراء كل امرأة عظيمة ... رجلان

بخطى واثقة ، تتقدم الدكتورة ليلى عالمة الكيمياء إلى المنصة لتتسلم جائزتها من مدير أكبر مركز للأبحاث العلمية بالولايات المتحدة الأمريكية ؛ لاكتشافها العلمى المثير ، والذى يعده علماء مراكز الأبحاث فى العالم ، بداية لثورة علمية فى مجاله .

فى تلك اللحظات ، تدمع عيناها وهى ترى علم بلادها يرتفع رويداً رويداً ، بينما الموسيقى تعزف نشيدها الوطنى ، ومذيع الحفل يقدمها لجمهور الحاضرين بالإنجليزية ، معلناً بأن الجائزة هى مفتاح الطريق لجائزة نوبل . تدوى الأيدى بالتصفيق ، وهى تتسلم الجائزة ، التى هى عبارة عن شيك بمئات الآلاف من الدولارات ، وميدالية فضية من مركز الأبحاث المانح للجائزة ، مع شهادة علمية موثقة تثبت حصولها عليها

كل هذا كان يتم ، بينما آلات التصوير التليفزيونى لا تتوقف عن العمل ، وأضواء آلات التصوير بأيدى بعض الصحفيين تبرق بين لحظة وأخرى . كانت تعلم بأن التليفزيون المصرى سينقل فقرات الاحتفال على الهواء مباشرة ؛ لهذا كانت تقف طويلاً أمام المرآة ، فبل الاحتفال بالفندق ذى الخمس نجوم ؛ لتصلح من زينتها وتكتشف ساعتها أن اللون الأبيض يغطى معظم شعرها ، و أن الأبحاث تسرق عمرها ، البالغ اليوم ستة وأربعين عاماً ، وها هى الآن وحيدة ، لا يقف بجانبها أحد ، فلا زوج لها ولا ولد .

بعد استلامها الجائزة ، وعقب إلقائها كلمة الشكر المكتوبة بصوتها المؤثر ، يلتف حولها الصحفيون ، ومراسلو القنوات الفضائية ، يوجهون الأسئلة لها ، وهى تجيبهم بحذر وباقتضاب ، لكنها تنتبه لمذيع يتحدث باللهجة المصرية يسألها :

ـ دكتورة ليلى ... نعلم بأن وراء كل عظيم امرأة ... فهل يمكن القول أيضاً ... أن وراء كل امرأة عظيمة رجلاً ؟

تبتسم له وهى تجيبه :

ـ بالنسبة لى يمكن القول بأن وراء كل امرأة عظيمة ... رجلين .

ـ من هما يا دكتورة ؟

تتجاهل سماعها للسؤال ... تعتذر لهم بأنها مجهدة .. تعدهم بأنها ستجيب عن كل تساؤلاتهم صباح الغد فى المؤتمر المقرر عقده بقاعة الفندق .

أمام حجرتها بالفندق ، تجد عشرات من باقات الورد المرسلة لها من بعض المصريين والعرب المقيمين بأمريكا ، وبعض الهيئات العلمية ، تتسلم عدداً كبيراً من برقيات التهانى ، لكن بالرغم من كل مظاهر الفرح والابتهاج ، ينتابها شعور بالرغبة فى الاختلاء بنفسها ... بل تود لو تبكى .. تسرع إلى التليفون .. تحادث مسئول الفندق تخبره بأنها اليوم مجهدة ... لا مقابلات صحفية أو غيرها ... لا للمحادثات التليفونية .

بملابسها تُلقى بجسدها على السرير ، بجوار الجوائز تظل ساكنة فترة ثم تخرج الشيك من الظرف ، تلقى نظرة عليه .. تعيده ثانية لمكانه ... تبتسم ساخرة ... إنها فى حاجة للسعادة ... لشريك حياة تحبه ويحبها ... لن يعوضها المال عن ذلك .

تفكر فى سؤال المذيع المصرى ... تسرح فيما لو حضر إليها فى الغد ؛ ليستكمل حواره ... ماذا ستجيبه ؟ ... تقرر بأنها ستخبره بأن الرجلين هما والدها ... والسيد وزير البحث العلمى ...
تبتسم فى سخرية مرة أخرى ... لكنها وهى فى حالتها هذه ، لم تستطع مقاومة استرجاع شريط ذكرياتها عن الرجلين الحقيقين ، اللذين كانا وراء حصولها على الجائزة .

تسترجع علاقة الحب الطاهر مع محسن ... زميلها بالدراسة بكلية العلوم ... كانت وقتها طالبة خجولة ... وكان هو مثلها . انقضت السنتان الأوليان ... لم يكن بينهما غير النظرات وبعض الكلمات اللطيفة يتبادلونها فى المناسبات . لكن الأمر سرعان مااختلف فى السنة الثالثة ، حيث التهبت مشاعرهما ... ولم يكتفيا باللقاءات داخل الكلية ... بل كانت بينهما لقاءات كثيرة على شاطئ النيل وفى الحدائق العامة ...

كان يُسمعها أرق الكلمات وأعذبها ... كان يسعدها أن تجلس فى صمت تصغى لحديثه ... أحبت لهجته الريفية ... كانت تشعرها بصدق كل كلمة وكل حرف يخرج من فمه ... حتى أحاديثه عن مشاكل عائلته بالقرية ... وعن احتياجها إليه لفلاحة الخمسة فدادين ، التى منحتها الثورة لوالده قبل وفاته ... وعن التزامه بقضاء الصيف ببلدته ؛ ليعمل مع إخوته بالأرض ، وليخفف عن أمه مصاريف إقامته بالحجرة التى يسكنها بالقلعة ، طرف إحدى العائلات المتواضعة . كانت تستمع إليه بشغف واهتمام وكانت تزداد سعادتها عندما يتحدثان عن زواجهما فور التخرج ، إنه الأمل البراق الذى سيقضى على كل المشكلات ... كانت كل أمنياتها أن تمر السنوات المتبقية سراعاً ، وكل طموحاتها كانت تتمثل فى ارتداء ثوب الزفاف الأبيض ... حلم كل فتاة .

و تمر الأيام ، و تعلقها به يزداد ، ثم يتخرجان ، كانت فرحتها غامرة ، فالأمل يكاد أن يتحقق . لكن مصارحة محسن لها فى ذلك اليوم الحزين ، أطاح بعيداً بالأمل وبالحب الصادق معاً ، فانهمرت دموعها غزيرة ، ولم تستطع ساعتها أن توقفها .

لقد اعترف لها بأنه متزوج منذ عام من ابنة الأرملة صاحبة الشقة التى يستأجر بها إحدى حجراتها ، وله منها ولد ، أقسم لها بأنه لا يحب زوجته تلك ، وأنه تزوجها مضطراً ؛ لأنها كانت حاملاً منه .

يقســـم لها بأن حبه لها كما هو ، لم يتغير ، و يريد الزواج منها ؛ لهذا فإنه يبغى من مصـــارحته تلك ، أن يتطهر من ذلك الإثم الذى ارتكبه .

كانت الصدمة قوية ... تتذكر تلك الأيام ... لقد كانت قاسية عليها ... لم تتحملها ، فعاشت فى عزلة ، وفى حالة اكتئاب شديد .

كرهت الدنيا وما فيها .. كرهت كلمة الزواج .. رفضت كل من كان يتقدم إليها ... لم تخرج من محنتها .. إلاّ حين شجعتها إحدى زميلاتها للمشاركة فى الدراسات العليا ... وعادت ثانية للاستذكار والدراسة .. التحقت للعمل بمركز البحوث .. فَعُرِفَ عنها بأنها الباحثة الجادة ، التى تنكب على الأبحاث المعملية ... وأصبح ذلك المكان هو مكانها المفضل ، ففى المعمل يوجد العمل .. والصمت .. بعيداً عن الأحاديث الجانبية التى قد تذكرها بما حدث لها .

أحبت حياتها الجديدة .. العلم والعمل .. لا للحب .. لا للزواج .. و تمر السنوات .. و تنسيها الأيام تلك الذكرى الأليمة للحب الأول فى حياتها .. وتحصل على الدكتوراة فى الكيمياء .. ثم تفوز بإحدى جوائز الدولة العلمية .

أصبحت حياتها عادية ... عادت لطبيعتها الأولى ... تزور وتتزاور ... ترتاد المسارح و دور السينما ... تلتقى بزميلاتها وزملائها .. تستمتع بأحاديث العمل .. و الأحاديث العائلية .. تصغى لدردشات صديقاتها عن أحوالهن العائلية ،

و متاعبهن مع الأولاد .. تلك المتاعب اللذيذة ... أصبحت تصغى لحديث أمها عن ضرورة زواجها ... و لِمَ لأ ؟ ... وما المانع من أن تتزوج ؟ ... لقد صارت أكثر نضجاً ... و لا زالت جميلة كما كانت . إنها ستختار هذه المرة بعقلها وقلبها معاً ... لا بقلبها فقط .

تسترجع حكاية حبها مع الرجل الآخر فى حياتها ... حيث خفق قلبها للحب مرة ثانية عندما قابلته بمكتبها ... إنه حسين ذلك المدرس الجامعى بأسيوط ، والذى انتدب للقاهرة بمركز البحوث ؛ لإجراء بعض الأبحاث تحت إشرافها ؛ ليقدمها فى رسالة للدكتوراة .

كانت قبل أن تراه تظن أن قلبها قد مات ... لكن ها هو يصرخ بأعلى صوت ليخبرها بأنه حى يرزق ... ويدفعها قلبها بأن تحيط بحسين ... خشية أن تخطفه منها إحدى الباحثات الأكثر منها حيوية وشباباً ... كانت توصله بسيارتها إلى حيث يقيم بمصر الجديدة . ورويداً رويداً أصبح هو كل شئ فى حياتها واهتماماتها ... كانت متحفظة فى البوح بعاطفتها نحوه ... كانت تذكره بقصة حياة مدام كورى وزوجها ... الزوجان العالمان ... إنهما استطاعا بزواجهما المتكافئ أن يصلا إلى أعلى الجوائز العالمية ، و أن يقدما الاكتشافات التى تقدم بها العالم ... كانت تحلم بأنها معه ربما تكون مدام كورى الثانية .. لم يكن موقفها بالنسبة لأبحاثه موقف المُوَجِّه

والمشرف فقط .. بل كانت كالشريك المتحمس .. واصلت معه العمل ليل نهار .. كان يعجبها فيه رجولته وشهامته ونبله .. صفات أبناء الصعيد الحميدة .. كان يقلقها أنه أصغر منها بعدة أعوام .. لكنها لم تعر ذلك الأمر اهتماماً .

كان الوقت بالنسبة لها عاملاً هاماً .. فالعمر يتناقص مع الأيام ومدة انتداب حسين بالقاهرة قاربت على الانتهاء ... بعد أن كُلِلت تجاربه بالنجاح . عاطفة الحب تتأجج فى صدرها ... و أمل الزواج منه يلح عليها ؛ لهذا كان لديها الشجاعة لأن تناقش معه فكرة الزواج ، بعدما سألته صراحة عما إذا كان فى حياته فتاة أخرى سيرتبط بها .. ولقد أجابها نفياً .

تتذكر حديثه معها فى تلك الليلة ... قال لها أنه لن يجد فى الدنيا من هى أفضل منها ... لكنها لا تصلح له زوجة ، فهو يعتقد بأن الزوجة مكانها البيت مهما كانت تحمل من شهادات .. ومهما علا قدرها بالمناصب والدرجات العلمية ... حديثه هذا ... وأد حبها نحوه .

كان عليها لكى تنسى هذه المرة أيضاً ، أن تواصل العمل ليل نهار ، وأن تعوض الفشل فى الحب بمزيد من النجاحات والاكتشافات فى أبحاثها ... وكان آخر تلك النجاحات الاكتشاف الذى كان سبباً فى حصولها على تلك الجائزة الليلة .

مسحت بيدها دمعة انسابت على خدها . وقفت تاركة السرير ، و أدارت التليفزيون بحثاً عن القناة الفضائية المصرية ... لعل القاهرة تعرض خبر حصولها على الجائزة فى نشرات أخبارها ... شعرت بسعادة طاغية عندما وجدت صورها تتصدر العديد من نشرات الأخبار العربية والأجنبية . تساءلت : هل يا ترى يراها محسن الآن ؟ ... كم تتمنى أن يكون قد شاهدها ... ابتسمت ساخرة حينما تذكرت رأى حسين فى المرأة ، وأن مكانها البيت مهما علا قدرها ، و مهما حصلت على أعلى الدرجات العلمية .

تَصَدُر خبر حصولها على الجائزة العلمية فى قنوات التليفزيون المختلفة كان له فعل السحر بالنسبة لها ، فقد دب فى أوصالها النشاط والحيوية .

اتجهت إلى الحاسب الشخصى الموجود بالحجرة ، والذى حرصت الهيئة العلمية التى دعتها لاستلام الجائزة على أن يكون تحت يدها ، قامت بتشغيله ... بحثت فى موقع بريدها الإلكترونى بالانترنت ... وجدت عشرات الرسائل من مختلف أنحاء العالم يهنئونها ... توقفت أمام رسالة من الدكتور الشوادفى بجامعة سيدنى باستراليا ... ياه .. الشوادفى ابن دفعتها بكلية العلوم .. منذ تخرجهما لم تره ... تتذكره جيداً ... كان كثيراً ما يتودد إليها فى أحاديثه ..

لكنها لم تكن تهتم به ؛ لانشغالها بحب محسن ... يهنئها بحصولها على الجائزة .. يخبرها بأنه علم من قصة حياتها المنشورة بالصحف أنها لم تتزوج بعد .. يخبرها أنه أيضاً لم يزل أعزب ... يعرض عليها الزواج ... فى حالة موافقتها سيعود نهائياً إلى القاهرة .

ابتسامة عريضة علت شفتيها ... توجهت إلى المرآة ... رأت نفسها أكثر نضارة و جمالاً عن ذى قبل ... شعرت بقلبها يخفق من جديد ... أهو الحنين لأيام الحب ... هل تعود ؟ ... تستعيد ذكريات الشوادفى معها ... حينما كانا برحلة الكلية إلى الأقصر ... تتذكر محسن وغيرته منه .. أسرعت إلى الحاسب الشخصى .. أرسلت له رسالة على بريده الالكترونى ... عبارة قصيرة تحمل باعتزاز موافقتها ... قالت فى رسالتها " يسعدنى إقامتك الدائمة بالقاهرة ".

هى و التحدِّى !

وقف مستنداً على عكازه ، محتمياً بظل شجرة ، من لهيب شمس الظهيرة الحارق ، منتظراً مرور سيارة أجرة ليركبها ... لكن السيارات التى مرت أمامه ، كانت كلها محملة بالركاب .

أخيراً ... هل يبتسم الحظ له ؟
على مسافة ليست بعيدة عنه ، وقفت سيارة أجرة ، نزل منها راكبها ، بدأت السيارة بعدها فى التحرك ، بسرعة أشار المعاق بيده للسائق ليتوقف ، أبطأت السيارة الأجرة لحظة ، بعدها أسرعت فى المسير.

تظهر علامات الحزن و الاستياء جلية على وجه الرجل ، تلمح فتاة تقود سيارتها الصغيرة ماحدث ، تتوقف ، ترجع بسيارتها للخلف إلى حيث يقف الرجل أمام مركز التأهيل المهنى ، تدعوه للركوب ، لكن المعاق يشكرها ، معتذراً لأن وجهته بعيدة ... مدينة نصر ، تكرر الفتاة دعوتها ، تُفَهِّمُه بأنها متجهة إلى نفس الإتجاه ، مصر الجديدة ، يركب السيارة بجانبها ، و ينطلقان .

....

ـ أنا شاكر جداً يا أفندم .
ـ العفو .
ـ تسودت الدنيا فى عينى ... فقد آلمنى أن سائق الأجرة أبطأ ؛ ليوقف السيارة ، ولما شاهدنى معاقاً عدل و أسرع بالمسير ، تألمت كثيراً رغم تفاؤلى بالحياة ، لكن أحمد الله ... لولا فعلته لما تشرفت بالركوب معكِ ! .
ـ شكراً ... أتعشم أن تظل متفائلاً ... رغم ما يقابلنا أحياناً من أحداث قاسية فى الحياة .
ـ ياه ! ... صادفتنى أحداث مؤلمة كثيرة ... لكن أحمد الله أن المواقف الخيِّرة التى قابلتها كانت أكثر ... منها موقفك النبيل هذا الذى أزال إساءة السائق فوراً .
ـ أشكرك .

بعد فترة صمت ، يحدثها :
ـ ألاحظ وجود علامة صحافة على زجاج السيارة ، سيادتك صحفية؟
ـ نعم ... نرمين السيد ... صحفية بمجلة " نساء الغد " .
ـ تشرفنا ، و أنا شريف جلال ، كنت ضابطاً بالقوات المسلحة ، فور تخرجى بشهور قليلة شاركت فى حرب أكتوبر ، و أُصِبت بلغم ، فقدتُ ساقى اليمنى ، و يدى اليسرى .

تختلس نرمين النظر بطرف عينيها إلى يده اليسرى الصناعية و تكمل حديثها معه قائلة :

ـ لى الشرف الكبير إذن لقيامى بتوصيل أحد أبطال أكتوبر .

تسود بينهما لحظة صمت أخرى ، ثم يعاودان الحديث ، قالت له :

ـ اسمح لى أن أقول لك بصراحة ... إننى لم ألحظ إصابة يدك اليسرى ... ظننتها طبيعية .

ـ صناعة الأطراف تقدمت كثيراً ... و التدريب على استخدامها صار سهلاً و متطوراً ، أصبح الشخص المصاب مع هذا التطور ، لا يشعر بفقدانه الشيء الكثير ... مراكز التأهيل تقدم الكثير فى هذا المجال .

ـ أشكرك ... فقد أرشدتنى لموضوع صحفى عن الجديد فى الأجهزة التعويضية ، و تدريب المعاقين بمراكز التأهيل ، و معرفة مشكلاتهم .

ـ سيكون الموضوع مثيراً أيضاً لو تضمن عزيمة المعاقين ، وتحديهم لعجزهم ، و إصرارهم بالتدريب الشاق ؛ للحصول على الميداليات الذهبية فى الدورات الرياضية ...

ـ فكرة جميلة .

ـ رغم إصابتى ، حصلت على ميدالية فضية فى رمى الجلة ، فى بطولة عالمية ، والآن أعمل مدرباً بدار الوفاء والأمل بمدينة نصر

. إذن أنت ذاهب للتدريب الآن ؟
. نعم .
. أعدك بأن يتضمن " الريبورتاج " جزءً عن تدريبك لهؤلاء الأبطال أيضاً ؛ لشد أزرهم .

و يعودان للصمت ثانية ، و تفتح نرمين الراديو ، ثم يحدثها شريف قائلاً :

. أعتذر لتسببى فى تأخيرك ، تعطلت أمس سيارتى المجهزة ، ووعدنى الميكانيكى بأن ينتهى من إصلاحها باكر .
. لا اعتذار ، و لا شيء من هذا .. فأنت فى طريقى .. و للعلم فإن " دار الوفاء و الأمل " قريبة من مسكن خطيبى ، و سيكون منزل الزوجية لنا بإذن الله .
. مبروك مقدماً يا أفندم .
. شكراً ... خطيبى رياضى ... و سأزوركم أنا و هو أثناء تدريباتكم بعد الزواج إن شاء الله .
. يحصل لنا الشرف ... و متى سيتم حفل الزفاف ؟
. بعد شهر تقريباً ... ممدوح خطيبى محاسب بشركة كبيرة ... مخطوبان منذ سنة تقريباً .
. ربنا يتمم بخير .
. شكراً ... كان المفترض أن يكون معى الآن ... وعدنى أن يمر علىَّ بالمجلة صباحاً ، لكنه لم يحضر ... و لم يتصل ليعتذر ... لاأعرف السبب ... أصابنى القلق ،

و لم أتصل به لأن اليوم عطلة بشركته ، و لا يوجد لديه تليفون بالشقة ، و تليفونه المحمول لايرد .
ـ سيكون المانع خيراً بإذن الله .

تخترق السيارة شوارع مدينة نصر ، بينما تكمل الفتاة حديثها بصدر منشرح للحياة ، و هى تستمع إلى بعض الأغنيات المنبعثة من راديو سيارتها :
ـ الشقة ثلاث حجرات و صالة ... بالدور العاشر ، لكن العمارة بها مصعدان .
ـ ربنا يبارك .
ـ هذه هى العمارة ... العمارة البيضاء الكبيرة ... ثالث عمارة .

أشارت بيدها إلى العمارة ، وهى تقود السيارة ببطء ... فجأة جحظت عيناها ، أصابها التوتر الشديد ، قالت :
ـ من ؟ ... ممدوح ... و زيزى ! .

ينظر شريف إلى حيث تنظر هى ... يشاهد شاباً يتأبط ذراع فتاة جميلة ، ينزلان ببطء من سلم العمارة ، و هما يتضاحكان ، وينظران إلى بعضهما بنظرات كلها هيام و غرام ، و يتجهان إلى إحدى السيارات الواقفة .

بعصبية شديدة زادت نرمين من سرعة السيارة ، ثم أوقفتها بأحد الشوارع الجانبية ، ألقت برأسها على عجلة القيادة ، أجهشت بالبكاء ، حاول شريف تهدئتها ، و الاستفسار منها عما حدث ، بعد مضى فترة قصيرة ، تهدأ قليلاً ، تمسح دموعها ، تبوح ببعض ما فى صدرها :

ـ المفاجأة صدمتنى ... شلَّتنى ... لم أعرف وقتها كيف أتصرف .. هل كان من الواجب أن أواجههما ؟ ... خائن ... قذر ...

ـ من ؟

ـ ممدوح ... كان مع زيزى ... بنت سمعتها سيئة ... تسكن ، للأسف ، فى الشقة المجاورة بمسكننا ... عرفتها بخطيبى عند تردده لزيارتنا ... لاحظت فى الفترة الأخيرة أموراً غير عادية ... كانت تزورنى فى الأوقات التى يحضر فيها ممدوح ... لاحظت نظراتهما لبعض ... كانت تسأله عن عمل لها بشركته ... وعدها بأنه سيعينها بالشركة قريباً ... صدرت منه بعض كلمات الإعجاب بها ، استبعدت أى ظنون إلى أن شاهدتهما اليوم معاً ، هل يُعقل أن تزوره بشقته ، و هى تعلم أنه يقيم بمفرده ؟

تعاود البكاء ، تهدأ بعد فترة ، و تكمل حديثها ، و بعد أن تصلح من وضع نظارتها الطبية التى انزلقت على أنفها ، تمسح دموعها :

ـ اليوم عطلة بشركته ، اتفقنا أن يحضر إلىَّ بالمجلة ؛ لنشترى معاً بعض الأشياء اللازمة لشقتنا ، لكنه لم يحضر ، اتضح أنه كان مشغولاً مع زيزى .

رد عليها ، محاولاً تخفيف الصدمة :

ـ بعض الظن إثم ... ربما تقابلا على السلم مصادفة ...

تبتسم نرمين فى سخرية ، تهز رأسها ، ثم تعاود السير بالسيارة ، ينبعث من الراديو صوت أم كلثوم ، مردداً : " و أنا اللى أخلصت فى ودى " ، و تكرر هذا المقطع عدة مرات ، تغلق نرمين الراديو قائلة :

ـ إخلاص ... أين الإخلاص فى هذا الزمان ؟

تصل السيارة إلى " دار الوفاء و الأمل " ، يودعها شريف شاكراً ، يقول لها ، و فى صوته نبرة حزن و أسى :

ـ كنت أود ألا أتركك و أنتِ فى هذه الحالة .

ـ أشكرك ... لا تخشى من شيء علىَّ ... لقد تعلمت منكم الكثير .

و تنصرف بسيارتها مسرعة ، مبتعدة عن الدار ... لكنها ظلت بعد ذلك تتردد عليها كلما واجهتها الصعاب ؛ لتستمد من هؤلاء الرجال المعاقين شيئاً من قوة الإرادة والتحدى .

فرحتان !

رنين تليفون فى المساء بمنزله ...

ـ آلو ... آلو .

ـ ...   ...

ـ آلو ... آلو .

ـ ...   ...

ـ رد يا بنى آدم .

يضع السماعة بعصبية ، تساوره الشكوك ، هل أخطأ وتسرع عندما تزوج من المدينة ؟ تاركاً بنات نجعه ، و اللاتى يعرف أخلاقهن الطيبة ، يسير وراء ظنونه . لابد أن الطالب كان يريد مكالمتها هى ... أهو حبيبها ؟ ... ألا تزال على علاقة به ؟ ... لم يفصح عن شكوكه ، و تظاهر بعدم الاهتمام .

لقد تزوجا منذ شهور قليلة ، يذهب هو كل صباح لعمله ، بينما تظل هى وحدها بالمنزل ؛ حيث لم تجد لها وظيفة مناسبة بعد . أحياناً تخرج لزيارة أمها فى الصباح ، بعدما ساورته الشكوك ، كان يترك عمله ؛ ليراقبها فى الموعد الذى ستزور أمها فيه بمنزلها القريب ، أحياناً أخرى كان يعود فجأة فى الصباح بحجة أخذ أوراق مهمة نسيها بالمسكن ، و لكى يستريح وتهدأ نفسه ، طلب منها عدم الخروج من المنزل فى الصباح ، أطاعته ،

أصبحا يزوران أمها معاً فى المساء .

تعلل ذات صباح بالمرض ، لم يذهب إلى عمله ، بعد قليل سمع رنين التليفون ، توجهت الزوجة ناحية التليفون لتتحدث ، سبقها هو

- آلو ... آلو ...

- ...   ...

- آلو ... آلو ...

- ...   ...

- رد ياابن الـ ...

تقول زوجته فى براءة :

- لماذا لا تدخل فى التليفون خاصية إظهار رقم الطالب ؟

لا يجيب على سؤالها ... يصمت ... لكنه يحدث نفسه بأن الطالب يمكنه أن يطلب من التليفونات العامة .

يحس بالضيق ... بالانهيار ... ينظر إلى وجهها ... لا يجد فيه أية تعبيرات غير عادية ... فى المساء يخرجان ، فى صدره نار متأججة ، لكنه يتظاهر بالسعادة مثلها ، الشكوك نحوها تتزايد ... تكاد تقتله ، يلاحظ سراً كل تصرفاتها .

أمام واجهة لمحل يبيع أربطة العنق للرجال ، وقف أمام الواجهة يتطلع ؛ يود شراء رباط عنق يليق بالبدلة البنى الجديدة ، وجد زوجته هى الأخرى . على غير عادتها . تهتم بالفرجة أيضاً على تلك الواجهة الرجالى ، يسأل نفسه : هل هى الأخرى تود شراء رباط عنق تهديه لحبيبها ؟ لقد اعتادت سابقاً فى مثل هذه الحالات أن تذهب لتشاهد الواجهة المجاورة التى تعرض الملابس
الحريمى ، هذه المرة خانها حرصها ، فتزداد شكوكه نحوها ... يعدل عن الشراء ... يعودان للمنزل .

فى الصباح ، تخبره بأنها ستزور أمها ؛ لأن صحتها متوعكة ، لايمانع ، بعد العمل توجه لأمها أيضاً ؛ لزيارتها ، عندما عاد مصطحباً زوجته ، اكتشفا سرقة أشياء من شقتهما ، تبينا سرقة الذهب و المجوهرات المتعلقة بالزوجة ، و بعض التحف الثمينة الخاصة به هو .

سأله الضابط بعد المعاينة ، و إثبات وصف المسروقات بدقة :
. هل تتهم أو تشتبه فى أحد ؟

ـ لأ .

هكذا أجاب بلسانه ، لكن بقلبه كان يود أن يتهم زوجته ، لقد شاهد زوجته من أسبوع ، تقرأ الجريدة باهتمام شديد عن قانون الخلع الجديد ! ... و لعلها تستعد لذلك بالاستيلاء على أغلى الأشياء و الإدعاء بسرقتها ... خاصة أنه لم يجد أمها متوعكة ، كما إدعت زوجته ...

تسيل دموع الزوجة ؛ لفقدها المجوهرات ... يزداد بكاؤها ... لا يهتم هو بذلك ... إنه يعرف أن دموع المرأة كدموع التماسيح .

عندما أتى الليل ... و توجها إلى السرير ... أخذت تربت بيدها عليه ... تعبث بشعره ... تحدثه أن الله سيعوضهما عن الأشياء التى سرقت خيراً منها ... لم يشأ المحادثة ... إدعى النوم ... ظل مستيقظاً يتقلب على جنباته ، و هو يفكر بعمق ... كيف يرد الصاع صاعين ... كيف ينتقم لشرفه و رجولته ... لا بد من معرفة عشيقها أيضاً ... لا بد من قتلهما ... لكن الأمر يحتاج إلى تفكير هادئ ؛ كى ينجو من العقاب ! .

فى الصباح تقدم له الزوجة هدية ، رباط عنق يليق بالبدلة الجديدة ، هو نفسه الذى كان يود أن يشتريه ... تقول له وهى تبتسم :
ـ كل سنة و أنت طيب ... اليوم عيد ميلادك .

ـ متى اشتريتيه ؟
ـ صباح أمس قبل زيارة أمى ... كنت أود أن يكون مفاجأة لك .

رباط العنق هذا ، لم يطفئ النار التى فى قلبه .. ينظر إلى زميله فى العمل ، والذى طلق زوجته ؛ لسوء سلوكها .. يود أن يتحدث معه .. لكنه يتردد .. يعتزم الانتقام .. لكن لابد من معرفة الشخص الذى يحدثها فى التليفون أولاً .. يعود لمسكنه بعد العمل يجد فى انتظاره أمها و إخوتها ... يقدمون له الهدايا لمناسبة عيد ميلاده ... يودون الاحتفال ؛ لعله يخفف وقع ما حدث لهما .
يبتسمون له ... و يبتسم لهم ... لكن فكره لا يزال مشغولاً .

و يرن جرس التليفون ، يقطب جبينه ، يقفز ممسكاً السماعة ، يكتشف أن المتحدث هو الضابط ، يطلب منه الحضور الآن ، هو وزوجته ؛ لاستلام المسروقات . أخبره الضابط عن العصابة التى تقوم بسرقة الأشياء الثمينة من الشقق ، بعد التأكد من خلو أصحابها منها عن طريق التليفون ... من ضمن أعضاء العصابة عامل تليفونات مفصول ! .
تدمع عيناه ... تهدأ نفسه ... يقبل الجميع ... وكانت فرحته فرحتين ! .

لِمَ لا تأتين ؟

نهاراً ، على شاطئ البحر ، كان مجلسنا ، أنا ووالدتى و زوجتى ، أسفل مظلة ، و بملابسنا كاملة ، فزوجتى لا تحب الاستحمام بالبحر ، ووالدتى ـ بطبيعة الحال ـ لكبر سنها ، وأنا أصبحت عازفاً عن نزوله ؛ كسلاً ، مفضلاً قراءة كتاب أو جريدة .

الناس كثيرةِ من حولنا ، لكنه ازدحام محبب إليهم ، فالكل يستمتع بالفرجة على الآخر ، كنت مستغرقاً فى القراءة ، عندما شعرت فجأة بشئ ما ينتابنى .. انتبهت .. وجدتها تهل علينا من بعيد .. حبى الأول إنها تتقدم نحونا .. رغم الاشتياق لرؤيتها و الاستمتاع بحديثها ... فقد جبنت ! ... خفت من زوجتى ! و فضلت أن أبتعد عن المشاكل ، بأن أظل جالساً فى مقعدى ، متظاهراً بالقراءة ! ... لكنها تصر على التقدم نحونا .. لا بد أنها رأتنى رغم الازدحام .. فهل دلها قلبها إلى مكانى ؟

زمان حدث ذلك ، كم دلنا إحساسنا عدة مرات إلى مكان الآخر، كان قلبى ساعتها يدق بشدة بمكان وجودها ، رغم عدم علمى المسبق بوجودها به .

لازالت تتجه نحوى بثقة .. ولا زالت هى .. هى ، بعيونها المعبرة وشعرها الجميل .. و قدها الممشوق الساحر .. وأخيراً بابتسامتها التى تجعل الدنيا ربيعاً دائماً .

تأكدت أنها تقصدنى عندما ازدادت ابتسامتها ، و هى تمد يدها نحوى .. نهضت واقفاً .. بلهفة مددت يدى أنا الآخر تصافحنا .. يالها من سعادة .. سرت النشوة فى كيانى .. لولا الجُبن الذى يعترينى .. لعانقتها .. بل قبلتها .. لكننى خشيت من زوجتى المنهمكة فى تطلعها إلى ملابس النساء من حولها .

*** * * * * * ***

أردت أن أتأكد إن كانت زوجتى قد رأتنى .. أضأتُ نور الحجرة .. تطلعت إلى وجه زوجتى النائمة بجوارى ، وجدتها مغمضة العينين ... مستغرقة فى نوم عميق ...

حمدت الله ... أسرعت بإطفاء النور ... أغمضت عينِّى .. وفى وجهى ابتسامة كبيرة ... ثم مددت يدى لنتصافح ؛ لنكمل أجمل حلم .. لكن دون جدوى ! .

حبيبتى ... أين ذهبتِ ؟

لِمَ لا تأتين ؟ .

سؤال بالحجرة ٦٠٤

انتهى الطبيب من فحص ساق المريض اليسرى ... قال باقتضاب :

ـ يلزم لها جراحة .

ـ لكن يا سيدى ... ألا يمكن علاجها بالحَقْن ؟

ـ حالتها متأخرة ... لا يجدى معها إلاّ الجراحة .

ـ ... و أعانى مما هو أشد من دوالى الساق .. فتق بالجانب الأيسر ... يؤلمنى كثيراً .

يعاود الطبيب الفحص ... ترتسم علامات التعجب على وجهه يمط شفتيه وهو يقول :

ـ تحتاج لجراحة ... و جراحة عاجلة .

ثم يضيف متسائلاً :

ـ لماذا تهمل نفسك لهذا الحد ؟

يصمت المريض و لا يجيب على سؤال الطبيب ، لكنه بعد فترة يستفسر من الطبيب :

ـ و أى الجراحتين ستجرى أولاً ؟

ـ الفتق بطبيعة الحال ، إنه فى حالة سيئة ، قد يؤدى إلى مضاعفات لا يمكن تداركها ، و ربما نجرى الإثنين معاً .. إن سمحت حالتك الصحية .

خصصت له الحجرة ٦٠٤ بالطابق السادس بالمستشفى ، تطل شرفتها على النيل ... المنظر منها بديع ... ينشرح صدره ! . يُخرِج المريض ملابسه و حاجياته من حقيبته ؛ ليضعها بالصوان ، يجذب الدرج للخارج.. يجد بداخله فردتى حذاء أسود ! يسأل نفسه:
أنسيها المريض الذى أقام بالحجرة قبله ؟ ... أم أن المريض ... يقطب جبينه ... و ينقبض صدره ! .

* * *

يرفض المريض التوجه لغرفة العمليات راقداً على السرير ، يفضل الذهاب سائراً على قدميه ، تمشى بجواره زوجته ، و معهما بعض الأهل و الأصدقاء ... و السرير الخالى يدفعه الممرضون خلفه ، يحاول جاهداً أن يظهر رابط الجأش ، يخشى أن تتقابل عيونه بعيون بعض الملتفين حوله ؛ فيضعف ... يسأل نفسه فى صمت : هل سيلتقى بهم ثانية يا ترى ؟ . يدخل غرفة العمليات ، يُغلق الباب خلفه ... و لا يُفتح إلاّ بعد أكثر من خمس ساعات عصيبة لمنتظريه ! .

* * *

بالحجرة ٦٠٤ ، يبدأ المريض فى التعرف على من حوله ، تجلس زوجته بجواره ، تعتنى به ، تحافظ على وضع المحاليل فى ذراعه ، يكتشف أنه أجريت له الجراحتان ... يحمد الله ! .

بعد قليل ، تدخل رئيسة الممرضات تتابع الحالة ... تطمئن ... تعلن أن الطبيب الذى أجرى العملية سيحضر بعد دقائق .

يدخل الطبيب محيياً ، يبتسم له المريض ، ابتسامة شكر وامتنان ، يخبره الطبيب بأنه تم تصوير العملية الجراحية ؛ ليعرضها على طلبته بكلية الطب ؛ ليوضح لهم الآثار المترتبة على إهمال المريض لحالته المرضية دون علاج فترة طويلة . بعدها يوجه الطبيب سؤالاً للمريض ، و هو يعاتبه :

ـ لقد أتعبتنى جداً ... لم يمر علىّ فى حياتى مريض مهمل فى حق نفسه مثلك ... لماذا أهملت نفسك طوال هذه المدة ؟

يصمت المريض مكتفياً بابتسامة واهنة ... فيكرر الطبيب سؤاله للزوجة ؛ لعلها تجيب هى ، لكنها تصمت أيضاً كزوجها ... و يخرج الطبيب دون أن يحصل على إجابة لسؤاله .

*** * ***

يتذكر المريض أمه ، و كيف كان يشاهدها و هى تصلى ـ منذ صغره ـ وتبتهل إلى الله بدعاء واحد ، تكرره بعد كل صلاة قائلة : " إلهى ... اجعل يومى قبل يومهم " ! ... بعدما تزوج و أنجب عرف مقدار حب الأم أو الأب للأبناء ... لكن الله لم يستجب لدعائها، رغم تكراره يومياً !!.. فقد اختطف الموت فجأة أكبر من أنجبت ... ابنتها الوحيدة ... كانت مأساة الأم كبيرة ... وفوق الاحتمال ...

و لكى تكتمل المأساة ... إذا بها تفقد أيضاً أحد أولادها الذكور ... الابن الأوسط .. و متى ؟ ... فى اليوم الذى تحيى فيه العائلة ذكرى الأربعين لوفاة وحيدتها !!

لم تحتمل الأم ... مرضت ... و خلال ذلك بدأ المريض يعانى آلام الفتق و دوالى الساق ... لم يفكر فى دخول المستشفى وإجراء جراحة ... خاف على أمه أن تفقده هو أيضاً ... تحمل وعاش مع آلام المرض ، و لا سيما و أن أمه كانت تذهب فى أيام محددة أسبوعياً لجلسات الأشعة ، مستندة على كتفى ولديها الباقيين على قيد الحياة .. كان المريض وقتها ينسى آلامه! .. إلى أن توفاها الله.

*** * ***

لِمَ يتذكر المريض كل هذه الذكريات الآن ؟

هل كان يجيب عن سؤال الطبيب الذى وجهه له بالحجرة منذ قليل ؟

ورقة مطوية صغيرة

بينما الأستاذ عبد الستار يراجع الأوراق التى على مكتبه ، بكل دقة وعناية ، كعادته قبل أن يوقع عليها ، إذ يخبره أحد جيرانه بالسكن . هاتفياً . بأن زوجته سعدية زلقت قدمها أثناء هبوطها درج السلم ، و نقلت للمستشفى وهى فى حالة إغماء . لملم أوراقه فى الحال ، قذف بها بدرج المكتب ، توجه مسرعاً للإطمئنان عليها، تمتم فى سره ببعض الأدعية والابتهالات إلى الله . إن الألم يعتصره ، فسعدية بالنسبة له ليست زوجته و شريكة حياته فحسب بل هى أكثر من ذلك ، فهى الحبيبة و الشقيقة ... و الأم أحياناً .

كانت بغرفة العناية المركزة فى غيبوبة تامة ، حاول الدخول إليها ، منعته الأوامر ، أعلنه الطبيب المعالج بخطورة حالتها ، الناشئة من اصطدام رأسها بالسلم عند سقوطها ؛ مما تسبب فى إصابتها بارتجاج فى المخ وكسور متعددة بالحوض وبالساق اليمنى لهشاشة عظامها ، طيب خاطره الجيران الذين اصطحبوها للمستشفى و شدوا من أزره ، شكرهم وودعهم ، ثم جلس وحيداً مهموماً ، بصالة الانتظار ، يرتب أفكاره التى تبعثرت فور علمه بالحادث .

يسأل نفسه ، هل يخبر ابنته سوسن ، التى تقيم مع زوجها فى الخليج ؟ أم يكتفى بإخبار ابنهما سعيد الموظف بأسوان ؟

بعد تردده ، يقرر أن ينتظر ، فماذا سيفعلان لو حضرا الآن ؟

لاشك أنهما سيجلسان فقط بجواره بصالة الانتظار ، طالما ظلت هى بالعناية المركزة ... لا فائدة من حضورهما الآن .

يسترجع ما ذكره الطبيب ، بأنه يأمل أن تمر الثلاثة أيام القادمة ، و هى على قيد الحياة ، عندئذ يكون الأمل فى الشفاء كبيراً ، و لكن إذا ... و آه من لكن هذه ... تسود الدنيا فى عينى عبد الستار فجأة ، لا يمكن أن يتخيل الحياة بدون سعدية ، يستغفر الله عدة مرات ، يقوم مسرعاً إلى العناية المركزة ، يعاود السؤال عنها ... تبتسم القائمة برعايتها فى وجهه ، تطمئنه ، تهدأ نفسه ، يعود من حيث أتى إلى مقعده .

يعاود التفكير ، يسأل نفسه ، أليست كل نفس ذائقة الموت ؟ .. لماذا لا يستعد إذن فيما لو حدث ذلك ؟ إنها إرادة الله ، يقضى ويأمر، و لأمره كلنا صاغر .

يقتنع بضرورة الاستعداد ، يخرج بهدوء من جيبه مفكرة صغيرة وقلماً ، يكتب عبارة " فى حالة الوفاة " فى أعلى الصفحة .. يضع تحت العبارة خطاً ، يكتب بعد برهة من التفكير بعض النقاط الضرورية لمثل تلك الحالة.. يكتب " إخبار الأبناء والأهل والأصدقاء بعد تحديد موعد الجنازة والعزاء ـ حجز السرادق بالجامع ـ إعداد
النعى و إرساله للجريدة فى الصباح ". يتوقف برهة ... يسرح فى ارتفاع أسعار النشر فى الجرائد ، و يقارن متذكراً الفرق الكبير بين سعر السطر فى النعى عند وفاة والديه ،

و الأسعار الحالية ، لقد تضاعفت عدة مرات .. يهز رأسه أسفاً !

يعاود الكتابة " شراء الكفن الشرعى . الحصول على التصريح بالدفن ، يلزم البطاقة وبطاقة المبلغ . تجهيز المقبرة . استئجار سيارة نقل الموتى . إعداد الطعام لمن هم على سفر ... " .

هكذا هو دائماً الأستاذ عبد الستار ، عندما تعترضه مشكلة ، أو يصادفه أمر خطير ، حيث يعكف مفكراً ؛ ليضع الحلول فى خطوات مرتبة ، ثم يقوم بتدوينها حتى لا ينسى تنفيذ إحداها ... فقد أصبح - فى عمره هذا - كثير النسيان ! .

بعدها ينزع الورقة التي دون بها هذه الأشياء من المفكرة ، ويطويها عدة مرات ، ثم يضعها بعناية و حرص بين صور أبنائه وزوجته فى حافظة نقوده .

* * *

تمر عدة شهور ... و بينما الأستاذ عبد الستار يراجع الأوراق التى على مكتبه ، بكل دقة وعناية ، كعادته قبل أن يوقع عليها ، إذ برأسه تميل ناحية الأوراق رويداً رويداً ، تصطدم بالمكتب ، تنبعث منه أصوات حشرجة ، تخفت تدريجياً ... ثم تسكت نهائياً . يسرع الزملاء نحوه ، يستدعون طبيب الشركة على عجل ، يكشف عليه ،

يخبرهم بنتيجة الكشف قائلاً : " البقاء لله " .
يكلف المدير البعض منهم فى الحال بجرد محتويات مكتبه والتحفظ على الأشياء التى تخصه ؛ ليسلموها لأسرته مع ما تحتويه ملابسه. يسرعون بالتنفيذ ، يعثرون على ورقة مطوية صغيرة بين صور أفراد أسرته بداخل حافظة نقوده ، يطلعون عليها ، يجدون عبارة "فى حالة الوفاة " عنواناً لمحتوياتها .

* * *

عندما سار المشيعون فى الجنازة ، دار حديث معظمهم حول ماجاء بالورقة المطوية الصغيرة ... قالوا :

- " كأنه كان يشعر بدنو أجله "
- " لقد شعر أمس فقط بألم شديد فى قلبه ... لعله كتب مابها بعد ذلك " .
- " الرجل الصالح عليه أن يستعد لمثل هذا اليوم "
- " كان تقياً و مكشوف عنه الحجاب ! "

* * *

فى منزله ، جلست زوجته سعدية متشحة بالسواد ، والجبس يلتف حول ساقها الأيمن ، تتقبل العزاء ، كان حديثهن يدور حول ما جاء بالورقة المطوية الصغيرة أيضاً ... قالت سعدية ؛
تعقيباً على كلامهن :

- " كان لا يحب أن يتعب أحداً ؛ لعله كتبها ليسهل علينا الأمر عند وفاته ! " .

... و تهاوت الأحلام

بعد الانتهاء من عمله بالمصنع ، و تناوله طعام الغداء مع زوجته و بناته ، جلس مسترخياً على حصيرة ، مستظلاً بجدار حجرته التى يسكنها بسطح العمارة ؛ ليدخن سيجارته المفضلة لديه وهو يحتسى الشاى بالنعناع ، الذى تجيد صنعه زوجته رئيسه ... بعدها يشعر رمضان بمتعة كبيرة .

زوجته تعرف عنه ذلك ، فترجئ عرض طلباتها لحين انتهائه من شرب الشاى ، وكثيراً ما يناديها لتجلس بجواره ؛ ليحدثها عن بعض همومه وحيرته بشأن ما يحدث بمصنعه من أمور الخصخصة التى تقلقه كثيراً ... حديثه معها يريحه نفسياً ؛ لأنها تعطيه دائماً الأمل فى الغد ... بابتسامتها وهى تستمع إليه .

أما هى ، فلا تحكى عن متاعبها أو الشقاء الذى تكابده فى تنظيف شقق بعض ساكنى العمارة ، تحدثه فقط عما يصل لعلمها من أحوال هؤلاء السكان . الأجر الذى تتقاضاه مقابل عملها ، تشارك بجزء منه فى نفقات البيت ، ومايتبقى منه تضعه فى دفتر توفير بمكتب البريد ؛ استعداداً لتجهيز بناتها الثلاث . يمتن رمضان بما تفعله زوجته ، فالأسرة متحابة .. متعاونة .. وقانعة .. وليست لها أحلام بعيدة المنال ، كل ما تتمناه أن تمر أيام الشهر بسلام ، أى أن أجرهما يغطى نفقات البيت من مأكل وملبس و إيجار الحجرة التى يقيمون فيها .

ما أجمل الأمسيات التى يقضونها فى الصيف ، وهم يشاهدون التليفزيون ، حيث يخرجونه من الحجرة ، ويضعونه أمامهم بالسطح بينما هم جلوس على الحصير ، يقزقزون لب البطيخ ، ويعلقون على مايشاهدونه من أفلام ومسلسلات ، معظمها شاهدوه من قبل ، لكنهم يستمتعون بمعاودة مشاهدتها .

هكذا تمر ليالى السمر بالنسبة لأسرة رمضان ، محبة و دفء عائلى ، رغم ما يكابده الأب من مشقة العمل ، وماتبذله الأم من جهد فى خدمة السكان نهاراً .

عصر هذا اليوم ، وهما فى جلستهما يتحاكيان ، إذ بهما يشاهدان طائراً بنى اللون ، فى حجم اليمامة ، يطير فى السماء فى اتجاههما ، ومن خلفه دوبارة ملونة مربوطة به ، وهو الأمر الذى لفت انتباههما ، وجداه يهبط تدريجياً ، ثم يحط على سقف الحجرة المجاورة لحجرتهما ، والتى يستأجرها الشيخ عبد السلام ، المقرئ بالمقابر ، والذى يعيش بمفرده بعد وفاة زوجته وزواج ابنته .

لاحظ رمضان أن الدوبارة تدلت من سطح الحجرة فى اتجاه الأرض .. أسرع بخفة ..أمسكها .. جذبها نحوه .. سقط الطائر على الأرض .. حاول الطيران ثانية .. لم يستطع .. يبتعد مسرعاً عن رمضان .. ظهر من مشيته العرجاء أنه مصاب فى إحدى ساقيه . يفلح رمضان فى الإمساك به .

. بدا الإعياء الشديد على الطائر ، ظل فترة فاتحاً منقاره ، ومخرجاً منه لسانه ، كأنه يلعق الهواء ، تنفسه كان سريعاً .. ورغم حالته هذه ، فإنه كان يجاهد فى الإفلات من قبضة يد رمضان .. باستخدام مخالبه تارة ، وبمنقاره تارة أخرى . يربت رمضان بيده الأخرى على الطائر ، محاولاً التهدئة من روعه ... ورويداً رويداً يهدأ الطائر ، و يميل إلى السكون .

التفتت رئيسه و بناتها فى سعادة حول رب الأسرة الممسك بصيده .

قالت الزوجة : إنها يمامه ، أو ربما نوع من السمان .. نتعشى به.
الابنة الكبرى قالت ـ فى سخرية : و ربما تكون بومة ! .
امتعض الجميع لهذا الاحتمال ، و دققوا النظر .
قالت الوسطى : لأ .. البومة وجهها مستدير .. وعيناها مستديرتان كبيرتان .. لكن هذا الطائر شكله مختلف .. ربما يكون فرخاً صغيراً لحدأة .

لم تهتم الابنة الصغرى بجنس الطائر ، كان كل اهتمامها رؤيتها له وهو مقيد ، شعرت بأنه مسكين يتعذب .. قالت فى رجاء لوالدها :
ـ حرام يا أبى .. فك قيده ... و دعه يطير .
نظر لابنته فى حنان ، قائلاً :
ـ ربما نفعل ذلك ... ولكن بعد أن نعالجه ... إنه فى حاجة للراحة وللأكل .

قالت رئيسه ، وهى تتجه للحجرة :
ـ حالاً .. سأحضر له ما يأكله .. وما يشربه .. ننال به ثواباً فى الآخرة
.

و هو ممسك بنهاية الدوبارة ـ بحنان ـ يضع رمضان الطائر على الأرض ، والذى أخذ يلتفت بسرعة لكل من يتحرك حوله ... تنبه الأب لذلك ... فطلب من بناته الابتعاد عنه ؛ ليطمئن ويهدأ. ربط نهاية الدوبارة فى حلقة حديد مثبتة بسور السطح ... بعدها جلسوا جميعاً يراقبون الطائر ، بعد أن وضعت رئيسه أمامه بعض الحبوب التى لديها من أرز وعدس وفول ... حديثهم دار حول هذا الطائر المربوط بدوبارة

قالت رئيسه :
ـ لعل أحد الأولاد اصطاده ثم ربطه ؛ ليلعب به .. لكنه تمكن من الهرب
يتحرك الطائر فى اتجاه طاجن الماء ، يمد منقاره به ، ثم يرفع رأسه لأعلى ، ثم يكرر هذه الحركة عدة مرات سريعاً .
قالت الابنة الكبرى :
ـ مسكين ... كان عطشان .

رَوِىَ الطائر من الماء ، لكنه لم يقترب من طبق الحبوب ، بجواره كان يوجد قفص من جريد النخل ، طار لأعلى ليقف عليه ، لف مخالبه الطويلة على عصا منه ، رغم حالته ، فإن الطائر كان يقف معتزاً بنفسه ، وهو ينظر حوله يميناً ويساراً .

قال الأب ، بعد أن تأمله كثيراً :

ـ احتمال أن يكون هذا الطائر نسراً وليداً .. أو صقراً صغيراً .

انتبه الجميع لحديثه ، وأخذوا يتأملون الطائر هذه المرة بعين فاحصة .

قالت رئيسه ، وقد بدا عليها الحزن :

ـ سوف تكون تربيته بخسارة ... لحم الجوارح لا يؤكل .. نطيره أحسن .

عقب رمضان على حديثها ، بقوله :

ـ أقول احتمال .. مجرد احتمال .. ولن نطيره إلاّ بعد أن نعالجه .

توقف الجميع عن الحديث ، انتبهوا لطرقات عصا الشيخ عبدالسلام ، التى يطرق بها على باب السطح ؛ إعلاناً بوصوله . يلقى عليهم السلام .. فيردونه عليه . تناديه الابنة الصغرى للحضور لمشاهدة الطائر الذى اصطاده والدها .. يأتى إليهم .. وهو يقول :

ـ ما شاء الله .. هذا رزق ساقه الله إليكم .. ياست رئيسه لاتنسى نصيبى من المرقة .

بعدها يمد يده فى الحقيبة القماش التى يحملها ، حيث يضع بها أشكالاً و أنواعاً مختلفة من الفطائر والفاكهة التى يقدمها له أقارب الموتى بالمقابر ، ترحماً على أقربائهم ، ثم يخرج يده بحذر ؛ حتى لا يعرف أحد ما بداخلها ، ويقدم لهم بعض الفطائر الصغيرة مختلفة الأنواع ، ثم يعاود إدخال يده مرة ثانية ...

ويعطيهم وهو يقول :
ـ خذوا ... من هذا الرزق ، الذى ساقه الله إلينا ... احمدوا الله .

يحمدونه و يشكرونه .. وهم يقبلون أياديهم .. ثم يتجه الشيخ عبد السلام إلى حجرته ، حاملاً الحقيبة المملوءة ، وهو يحدث صوتاً بنعليه أثناء مشيه على الأرض .. و يعاود تذكير رئيسه بنصيبه فى المرقة .

تضحك رئيسه ، وهى تحادث زوجها بصوت منخفض ، قائلة :
ـ آه لو عرف أن الطائر هبط على حجرته .. كان سيطالب بنصيبه من لحمه أيضاً على الأقل ! .

يذهب رمضان إلى المقهى ، الذى يتجمع به بعض العمال من مصنعه ، و منهم زميله على ، الذى يقوم بتربية الحمام ، والذى كان قد شكا إليه ذات مرة من الصقور التى تحوم حول برج الحمام ببيته ، وعرف أن لديه معلومات عن الصقور ، و يستطيع أن يخبره عن جنس الطائر الذى أمسك به .

سأله على عن شكل منقار الطائر ، و عن طول رجليه ، وذيله ولون ريشه ، بعدها أكد زميله له بأن الطائر هو أحد أنواع الصقور العديدة ، وهو من نوع الباز ، الذى يستخدم فى الصيد ، ونصحه بأهمية الحفاظ عليه ،

فإن ثمنه إن كان مدرباً يقدر بآلاف الجنيهات ويشتريه بعض الأمراء و الأثرياء العرب للصيد .. وأرشده للذهاب لمحلات بيع أدوات الصيد .. فإنهم سيساعدونه على ذلك .. وأخبره بأن الصقر يحب أكل اللحم النيئ .

عاد رمضان مسرعاً إلى بيته ، و معه كيس من اللحم المفروم أخبر زوجته بأن الطائر هو صقر ، ولا يأكل الحبوب ... وقدم له اللحم المفروم ... كادت رئيسه أن تمسك بخناقه ... لكنها عندما علمت بأنه يباع بعشرات الألوف من الجنيهات .. ابتسمت وهى تقول :

ـ ألم أقل لك يا رمضان منذ زمن ... لا تحمل هماً ... رزق البنات واسع ... سوف نرزق بإذن الله .

قالت الابنة الكبرى :

ـ لا تقاطعى يا أمى ... نتأكد من أنه صقر أولاً ... يكون كذلك إن أكل اللحم .

بعد فترة وجيزة .. يمد الصقر منقاره فى إناء اللحم ، يأكل بنهم ، يبدو أنه كان جائعاً .. قالت رئيسه :

ـ فعلاً ... صقر ! .

تحدثت الابنة الكبرى ، طالبة من والديها الانتقال للسكن بشقة فى أى مكان ، بدلاً من السكن بالسطح ، وذلك بعد بيع الصقر ...

أنَّبَها والدها ، موضحاً بأنه لولا السطح هذا ، لما تمكن من الإمساك بهذا الصقر ... ولاستحال عليهم الحصول على الثروة عندما يبيعونه .

قالت لهما رئيسه ، وهى تلطف الحوار الدائر :

ـ تكفينا هذه الحجرة ... وحجرة الشيخ عبد السلام ... إنه لن يمانع إن أعطيناه مبلغاً من المال بعد بيع الصقر ... ويستطيع الشيخ أن يعيش مع ابنته فى بيتها .

ثم قالت رئيسه ـ بدلال ـ محدثة زوجها :

ـ طبعاً سأرتاح من الخدمة فى بيوت الناس يا سى رمضان .

يهز رمضان رأسه عدة مرات ، موافقاً ، بقوله :

ـ طبعاً .. طبعاً .. لن تخدمى عند أحد .. بيتك أولى .

و يستمر الحوار بينهم مدة طويلة ، كان محوره يدور حول آمالهم وأمنياتهم ، عندما يبيعون الصقر ، إلى أن ينهى رمضان حديثهم متثائباً ، بقوله :

ـ ثمن بيعه سيكون مبلغاً كبيراً ، سنودعه بالبنك ... ومن فوائده سنشترى كل احتياجاتنا .. ستكون الفوائد مبالغ كبيرة أيضاً ... الآن دعونا ننام .

بعدها يحمدون الله ، يطفئون النور ، يكفون عن الحوار ، لكن كل منهم ظل يتحدث مع نفسه فى صمت قبل أن يستغرق فى النوم.

*** * * * ***

تمر الأيام فى أولها هنيئة ، فما أحلى أن يعيش المرء ، وفى يقينه أن أحلامه ستتحقق قريباً ، الأحلام المشتركة بين كل أفراد الأسرة ، و الأحلام الخاصة لكل واحد منهم .

و بدون أن يدروا ، تغيرت بعض عاداتهم تدريجياً ، فرمضان أصبح لا يشغله شئ إلاّ العناية بالصقر وشراء اللحم المفروم له . وكان يسعد كثيراً عندما يرى الصقر ينظر إليه بامتنان وحنان ، رغم الحدة التى فى عينيه ... حيث يكون وقتها طائراً وديعاً أليفاً .
كان يفعل ذلك مع رمضان فقط ... أما بقية أفراد الأسرة ... فكان أمره يختلف ... فهو لا يأمن جانبهم ، إذا ما اقتربوا منه فى محاولة منهم للعب معه ، أو معاكسته .

كان يسعى رمضان ـ بشتى الطرق ـ لتدريب الصقر على فنون الصيد ... وكان يبحث مع زملائه بالمصنع ممن لهم أقارب يعملون بدول الخليج عن مشتر لهذا الصقر ... كان يعدهم بتقديم نسبة مالية كبيرة لمن يساعده فى اتمام صفقة البيع .
لكن الأيام الهنيئة تمر سراعاً ، ويحل بدلاً منها أيام أخرى تتصف بالضيق والتبرم .. فرئيسه أصبحت تتبرم من توجهها للعمل لنظافة الشقق ... وكثيراً ما اعتذرت لهم عن العمل بحجة تعبها ومرضها .. و فى الأيام التى كانت تعمل بها .. كانت رئيسه تصرف كل أجرها ، ولم تعد تقتطع جزءاً منه لتضعه فى دفتر التوفير ،

فقد أيقنت أن بيع الصقر سيحل مشكلة تجهيز البنات .

حالة الضيق والتبرم وصلت للبنات الثلاث أيضاً ، فأصواتهن تعالت بالشكوى من ملابسهن القديمة ، وأحذيتهن البالية .. رغم أن نظرتهن لم تكن هكذا منذ أيام قليلة فقط .. لقد تفجرت الأحلام المكبوتة لديهن ... وتجسدت رغبتهن فى شراء العديد من الأشياء الجديدة .

لم يختلف الأمر بالنسبة للأب ، فقد أصبح هو الآخر متبرماً .. سريع الغضب ؛ لشعوره بالفشل فى تدريب الصقر ، فهو شخصياً لايصلح لتلك المهمة ، ومن يصلح يطلب مبلغاً كبيراً لا يقدر عليه ، بل إن بائع أدوات الصيد أخبره بأنه يعرف ثرياً عربياً يدفع مبالغ طائلة ثمناً للصقور .. لكن ذلك البائع طلب عمولة مقابل عملية البيع .. طلب نصف ما سيتقاضاه رمضان ، الذى كان يردد لزوجته وهو فى حالة ضيق شديدة :

ـ الكل طمعان ... يستكثرون علينا عدة ألوف من الجنيهات !

حتى " كوكو " ـ و هو الاسم الذى اطلقته البنات على الصقر ـ أصبح هو الآخر متبرماً من عيشته هذه ، رغم أكله اللحم كل يوم ، و رغم أن رمضان أطال الدوبارة الممسكة بساقه ، فجعل طولها خمسة أمتار تقريباً .

و تبرم " كوكو " يرجع إلى أن صحته تحسنت ، وساقه شفيت ، وزال عنه العرج .. لكنه كان يحزن عندما يشاهد أقرانه من الطيور وهى تروح و تغدو طائرة فى السماء بحرية مطلقة فى كل الاتجاهات ... كان لا يستطيع على ذلك صبراً ، فينطلق طائراً ... لكن الدوبارة الملعونة سرعان ما تشده ، فيقع مرتطماً بالأرض ، عندئذ كانت الشراسة تبدو فى عينيه ، محاولاً بمنقاره تمزيق الدوبارة وتقطيعها ... لكنه لا يفلح ... ولا يلبث أن يسكن هادئاً ، وفى نظراته الحزن العميق .

وهكذا عاش الجميع فى حالة من التبرم والسأم ، ورغم ذلك فإن جلسات السمر على السطح استمرت .. لكن الضحكات اختفت .. وحل بدلاً منها أحاديث كلها تدور حول أولويات الشراء .

* * * * *

ذات يوم عند عودة رمضان من العمل ، توجه إلى مكان وجود الصقر ، وجد الدوبارة موجودة كما هى ، ومربوطة بإحكام فى حلقة الحديد بالسور ... ولكن بدون الصقر ... الذى نجح هذه المرة فى قطع الدوبارة ، حيث طار بعيداً ... لم يشعر أحد بذلك ....
بحث رمضان عنه فى هلع ، فى كل مكان ، لكن دون طائل ....
كان هذا اليوم بداية للأيام الحزينة التى عاشتها الأسرة ... ظلت الدوبارة كما هى فى حلقتها الحديد ...

وكثيراً ما كان رمضان يمسك بالقفاز الطويل الذى اشتراه خصيصاً للصقر .. متذكراً الصقر وأحلامهم .. فيبتسم ساخراً .. وتستمر الأسرة فى جلسات السمر .. ويتذكرون وهم محزونون .. الأحلام التى تهاوت .. ويتمنون أن يعودوا لأيامهم الأولى .. حيث القناعة و الرضا .. والسعادة .

تعديل وزارى !

مُتعِبة هى رحلته اليومية ، التى يقضيها شعبان ، ذهاباً وإياباً بالقطار إلى القاهرة لمقر عمله ، ثم عودته لقريته بمركز طوخ حيث مسكنه وأسرته . مراراً تنصحه زوجته كى يسعى لينقل للعمل ببلدته ؛ ليتجنب المشقة وتكاليف السفر ، لكنه لا يلبى طلبها ، مجيباً عليها بأن تخصصه لا تحتاجه قريته ، فمؤهله المتوسط فنى لاسلكى . تسكت المسكينة على مضض ، فهى لاتعرف شيئاً عن عمله ، وتهاب مناقشته لإحساسها بالعجز قباله ، ولاتجيد فن الحديث مثله ، ومعها عذرها لأنها أُمّية .

أما حقيقة الأمر ، فإنه لايرغب فى العمل ببلدته ، وهذا يرجع لسعادته من عمله الحالى بالقاهرة ، فأهل قريته يضعونه فى مكانة أعلى و أهم من حقيقة وضعه الوظيفى ؛ لسبب بسيط ، وهو عمله بديوان وزارته ، وبالأدق عامل بالسنترال الداخلى بها ، وبحكم عمله ، فكثيراً ما يتنصت ويعلم ببعض الأخبار والأحاديث فى العمل.

فإذا ما عاد لقريته ، وجلس فى المساء بالمقهى ، التف حوله بعض الأصدقاء والمعارف يسألونه بشغف :

ـ ما أخبار الحكومة يا شعبان ؟

وبنشوة يخبرهم بما يعلم ، مضيفاً كثيراً من تخميناته ، لكنه كان دائماً يذكر قبيل سرد أحاديثه عبارة كانت تتكرر دائماً ، وهى :

" اليوم وأنا فى الوزارة علمت ... " . والغريب فى الأمر أن معظم التخمينات والتوقعات التى يذكرها ... كانت تصدق ! .

كانت سعادة شعبان تصل إلى منتهاها ، حين كان يُفضى ببعض الأسرار ، ناظراً لعيون مستمعيه ، فيجد فيها علامات الدهشة والانبهار ، عندئذٍ كان يشعر بالزهو ، متناسياً متاعب ومشقة السفر اليومى فى الذهاب والعودة ، ومتناسياً مرارة أن معظم مستمعيه من زملائه حصلوا على المؤهلات العليا ، بينما تعثر هو لظروفه المادية.

فى مرحلة الذهاب صباحاً ، تجده يسرع الخُطى ، وهو يعبر فناء محطة السكة الحديد بالقاهرة ، فلا وقت لديه كى يتطلع للناس أو للأشياء ، كل اهتماماته تنحصر فى سرعة وصوله لعمله ؛ ليوقع فى دفتر الحضور فى الموعد المحدد .

أما فى رحلة العودة ، فالأمر يختلف فلديه فسحة طويلة من الوقت يقضيها بالمحطة ، حتى يحين موعد قطاره الذى يتوقف بالمراكز ؛ لهذا فشعبان يقضى وقته هذا متسكعاً بالأرصفة المختلفة بالمحطة ، متطلعاً لوجوه المسافرين ، وخاصة السائحات الأجنبيات

إنه لايستطيع مقاومة سحرهن ؛ لهذا فإنه كثيراً ما يتوجه إلى الأرصفة التى تقف عليها القطارات الفاخرة ، فإن نوعية ركابها تختلف عن نوعية الركاب بقطاره ، فملابسهم وحقائبهم دائماً نظيفة وجديدة ، ويعطرون أنفسهم بروائح زكية .

أثناء تجواله بالمحطة على رصيف رقم ٤ ، حيث من المقرر أن يقف به القطار الفاخر ، أحس بحركة غير عادية ، عمال كثيرون من المختصين بشركة النظافة بزيهم ، يقومون بكنس الرصيف بعناية فائقة ، رئيسهم يباشر عملهم بهمة ويوجههم ، يكتشف ذلك الرئيس بعض البقع الزيتية على الأرض ، بسرعة يلقى العمال عليها سائلاً أزالها على الفور .

يحضر مسئول بالسكة الحديد ، يهمس بكلمات لرئيس عمال النظافة ، مشيراً إلى ملابسهم ، عقب ذلك يأمرهم رئيسهم بارتداء غيرها فوراً ، ينفذون أمره ، يتركون العمل ويهرولون ... وبعد دقائق يعودون وهم بملابس جديدة ، تبدو أنها تُرتدى لأول مرة ... ويستمرون فى نظافة الرصيف مرة أخرى .

ما سر هذه الحركة غير العادية !؟ ، يجلس شعبان على مقعد خشبى يتابع هذه الحركة محاولاً معرفة السر .

يدخل إلى الرصيف القطار الفاخر خالياً ، يسرع عاملان من السكة الحديد بزيهما إلى باب العربة رقم ٦ ،

وهى إحدى العربات المخصصة للدرجة الأولى ، يمنعان الدخول إليها ... ويتوافد بعض المسئولين من السكة الحديد ، يتابعون ... يشرفون ... أحد العمال أحضر سجادة طويلة حمراء ... قام بفرشها على الرصيف وحتى باب العربة ... اطمأن لنظافتها ... عندئذٍ لفها ثانية . يتوافد آخرون أكثر أهمية ... كل هذا و شعبان لم يعرف السر بعد ... ولكنه تأكد من أن شخصية مهمة ستسافر اليوم بالقطار . إنه يحدث نفسه بأنه شاهد وزراء يركبون فى القطارات بدون أن يجرى لهم مثل تلك المراسم . ويستمر شعبان فى الجلوس على مقعده المقابل لباب العربة رقم ٦ .

الصدفة وحدها هى التى ساعدت شعبان فى معرفة السر ، فأحد المسئولين انتحى جانباً بعيداً عن زملائه ، متحدثاً بالتليفون المحمول مع أحد الرؤساء الكبار ، كان خلفه يجلس شعبان ، الذى كعادته تنصت للمحادثة :

- كل شئ تمام ... لا ينقص غير تشريفك يا باشا .

- ....

- خمس دقائق فقط يا باشا لن يتعطل فيها العمل .. وسيادة الوزير على وصول .

- ....

- لا يا أفندم ... لن يخرج فى التعديل الوزارى ... كلام فى سرك ياباشا ... هو رئيس الوزراء القادم .

ـ من مصدر موثوق منه ... و ...

ـ ....

ـ أنا فى انتظارك يا باشا ... تشرّف يا باشا .

بعد مضى دقائق قليلة ، أصبح إيقاع الحركة سريعاً على الرصيف ... و تم فرش السجادة الحمراء ، ثم بعد دقائق أخرى ازدحم الرصيف بكبار المسئولين ، وبينهم رجال شرطة من ذوى الرتب العليا ، بعدها هلَّ الوزير ... الكل تسابق لمصافحته ، ارتسمت على الوجوه ابتسامات عريضة ، ظلت على حالها هذا حتى تحرك القطار .

ـ آه يا بلد ! .

قالها شعبان فى سره ، وهو ينهض متجهاً ليركب قطاره ، الذى قرب موعد تحركه هو الآخر .

فى المساء ، جلس شعبان بمقهى القرية منتفخاً ، إنه يحمل سراً علم به مصادفة ، التف حوله الأصدقاء كالعادة ، لم ينتظر منهم أن يسألوه عن أخبار الحكومة ، بدأ هو الحديث ، ولم يخبرهم بحقيقة كيف وصل لعلمه من هو رئيس الوزراء القادم ... قال فى زهو العليم ببواطن الأمور :

ـ اليوم وأنا فى ديوان الوزارة ، علمت بأن رئيس الوزراء القادم هو الوزير " فلان الفلانى".. واعفونى من ذكر كيف علمت ذلك !.

لم يمض وقت طويل على شعبان فى جلسته هذه ، مع أصدقائه بالمقهى ، إلاّ ويعلن المذيع فى نشرة أخبار التاسعة بالتلفزيون ، عن التشكيل الوزارى الجديد ، وعن اسم رئيس الوزراء القادم ، وتبين للجميع أن الوزير الذى رشح اسمه شعبان لرئاسة الوزراء ... خرج من الوزارة .

كان يوماً حزيناً بالنسبة لشعبان ، فقد رأى الشماتة فى عيون مستمعيه ، وابتسامات السخرية على شفاههم !!.

الفهرست

Contents